ماهر شرف الدين

حكُّ الصَّدأ



حكُّ الصدأ

١

تاريخ الطبعات:

الطبعة الأولى: 2017

الطبعة الثانية: 2021

ماهر شرف الدين

حكُّ الصدأ

سياسة

الطبعة الثانية، 2021

منشورات ماهر شرف الدين

ISBN: 978-0-9985392-9-4

مقالات مختارة

واكبتْ الثورة السورية

بين عامَيْ 2012 - 2016

الأبراج العاجية
والأقبية الرطبة

من بين الأسئلة الأكثر تعقيداً التي أثارها الربيع العربي عموماً، والثورة السورية على وجه التحديد، سؤالٌ عن دور المثقَّف وموقفه... وحين نقول «موقفه» فكأنَّما نقول «موقعه».

واللافت أنَّه أمام هذا السؤال لـمْ يرتبك المثقَّفون «العاديون» بقدر ما ارتبك المثقَّفون «الكبار»!

العديد من هؤلاء الذين كانوا دعاةَ حرِّيةٍ وتمرُّد، تحوَّلوا فجأةً -مع وصول رياح الثورة- إلى منظِّرين مـخمليين متطلِّبين مشترطين، لنكتشف -بعد مضي القليل من الوقت- بأنَّ وراء تلك الـمخملية وذلك التطلُّب هواجسَ ضيِّقةً بدائيةً لا تليق بالمثقَّف «العادي» فكيف بالمثقَّف المشهور الذائع الصيت والمؤلَّفات!

ورويداً رويداً تحوَّل هذا النوع من المثقَّفين إلى ما يشبه الأبواقَ التي أجادت الأنظمةُ الاستبداديةُ النفخَ فيها لإطراب المؤدلجين من جمهورها.

لكنَّ الأمانة النقدية تقتضي القول بأنَّ ارتباكَ المثقَّفِ العربيِّ، اليومَ، أمام هذا الـمنعطف الكبير ليس الأوَّل في تاريخه، بل هو مجرَّد حلقة في سلسلةٍ طويلةٍ ومستمرَّة أعمتْ أبصارَها لمعةُ الرخامِ على دَرَجِ السلطةِ في الطريق لمقابلة الوالي أو الملك أو الرئيس... وأحياناً الَغازي (كيف ننسى، مثلاً، حكاية ابن خلدون مع مدينة دمشق وانبطاحه أمام تيمورلنك؟).

قبل زلزال الثورة، كانت الفكرة أن هؤلاء المثقَّفين «الكبار» أصابهم «القرف» من مجتمعاتهم المتخلِّفة واختاروا العيش في أبراج تتيح لهم مراقبة تلك المجتمعات من دون أن «تتَّسخ» ثيابهم جرَّاء الاحتكاك بأبنائها.

لكنَّ رياح الثورة التي هبَّتْ... نزعتْ ملابسهم وكشفتْ حقيقتهم القبيحة. واكتشفنا، فجأةً، بأنَّ تلك الأبراج العاجية لم تكن في الحقيقة سوى أقبيةٍ رطبةٍ لا تختلف بشيءٍ عن الأقبية الرطبة لأجهزة القمع التي سايرها هؤلاء المثقفون «الكبار» وحابوها وتغاضوا عن جرائمها.

لقد خرجت الثورةُ من الجوامع لأن نظامكَ «العلماني» أيها المثقَّف «الكبير» لم يترك للسوريين حيِّزاً عامَّاً يجتمعون فيه سوى الجامع.

أمَّا اليوم، وأنت تنتشي بتحقُّق «نبوءتك» الدموية، فلمْ يعد لكَ من مرآةٍ تتمرأى فيها سوى هذه البِرْكة من دماء الضحايا؛ الذين لـمْ يُتحْ لهم الفقرُ شراءَ مؤلَّفاتك العظيمة!

موقع «كلُّنا شركاء»، **3** تـمُّوز **2015**

ثمن العودة إلى السياسة

ثمَّة حكاية شعبية تتداولها العامَّةُ في جبل العرب مفادها أن حافظ الأسد في سبعينيات القرن الفائت قال غاضباً لوفدٍ محلِّيٍّ من الجبل، اقترح عليه إقامةَ ما يشبه اليوبيل للثورة السورية الكبرى، بأنَّه «في سوريا ثورةٌ واحدةٌ هي ثورة البعث»!

بالطبع، يمكن للبعض أنْ يفهم هذه الحكاية كمحاولةٍ من الأسد لإلغاء التاريخ في سبيل إبراز تاريخه الشخصيِّ. لكنَّ مثل هذه القراءة هي أحد الأخطاء الكثيرة التي وقع فيها السوريون عموماً حين فسَّروا مقدِّمات ومآلات وسياسات حكم الأسد بتفسيرٍ قريبٍ من هذا التفسير.

ولأشرحَ ما أعنيه سأُحوِّر قليلاً في الحكاية:

فلنتصوَّرْ أن الوفد الذي قابل حافظ الأسد اقترح عليه إقامة يوبيل لمعركة حطين مثلاً، أو لأيِّ معركةٍ دخلت التاريخ نهائياً وأقفلت وراءها الباب. الجواب المنطقي هو أنَّ الأسد لن يُـمانع في إقامة مثل هذا اليوبيل. ليس لأن صلاح الدين لـمْ يعد موجوداً

(مثل سلطان الأطرش في ذلك الوقت)، بل لأنَّ المفاعيل السياسية لمعركةٍ مثل معركة حطين لـمْ يعد لها وجود، بينما مفاعيل الثورة التي قادها الأطرش كانت ما تزال حاضرةً بقوَّةٍ عبر أهل الجبل كقوَّةٍ عسكريةٍ (وإن قام حافظ الأسد بتصفية ضبَّاطها في الجيش) وسياسيةٍ (وإن قام حافظ الأسد بتصفية كوادرها سجناً ونفياً) واجتماعيةٍ (وإن قام حافظ الأسد بإضعافها عبر فبركة زعاماتٍ وهميَّةٍ من خلال أخطوبطَي المال والمخابرات).

فإذاً، ما جعل حافظ الأسد يرفض طلب الاحتفاء بالثورة السورية الكبرى، هو السياسة لا التاريخ. أو هو حرصه على إلغاء السياسة قبل رغبته في إلغاء التاريخ الذي يعرف جيِّداً بأنَّه لا يمكن إلغاؤه.

لقد أقفل حافظ الأسد كلَّ الأبواب أمام السوريين لممارسة السياسة، حتى من خلال احتفالٍ شعبيٍّ رمزيٍّ بذكرى تاريخية قريبة ومركزية في تاريخ سوريا المعاصر.

سياسةُ اليوم هي تاريخُ الغد. ربَّما هذا ما راهنَ عليه حافظ الأسد.

لذلك قال للسوريين في البداية: خذوا المجتمع والاقتصاد وأعطوني السياسة (انقلاب «الحركة التصحيحية»).

ثم قال لهم: خذوا الاقتصاد وأعطوني الـمجتمع والسياسة (مذبحة حماة في الثمانينيات).

ثم قال لهم: أعطوني الاقتصاد والـمجتمع السياسة وخذوا كل ما هو سوى ذلك (ائتلاف مافيات عائلات الأسد ومخلوف وشاليش... إلخ).

وحين انتبه إلى أن التاريخ هو مما تبقَّى لدى السوريين، حاول مصادرته أيضاً.

مع ممارسة الحكم اكتشف حافظ الأسد أنه إذا أراد مصادرة السياسة فعلاً فعليه مصادرة الاجتماع والاقتصاد أيضاً، بل وحتى مصادرة التاريخ القريب الذي ما زالت مفاعيله السياسية قائمة.

ومع ممارسة الحكم اكتشف السوريون ذلك أيضاً، وثورتهم اليوم ليست سوى ثمرة لذلك الاكتشاف:

السياسة في بلد محكوم بالدكتاتورية هي كل شيء في هذا البلد.

وبالتالي فلكي تستطيع الوصول إلى الاقتصاد، مثلاً، فعليك الـمرور في السياسة (اكتشف ذلك، متأخِّراً، رئيس الوزراء اللبناني الأسبق رفيق الحريري الذي قال للأسد الأب: خذ السياسة في لبنان وأعطِني الاقتصاد... وكان ثمن اكتشاف الخطأ في هذه المقولة هو الاغتيال على يد الأسد الابن).

أقفلَ حافظ الأسد الطريقَ الرئيسيَّ لوصول السوريين إلى السياسة، ثم أقفل الطرق الفرعية (الاقتصاد والـمجتمع)، ثم أقفل حتى الزواريب الضيِّقة (التاريخ القريب). وحين يئس السوريون من ولوج أيٍّ من تلك الطرق قرَّروا فتحها بالقوَّة.

المذابح الجارية في سوريا اليوم هي، فقط، ثمن عودة السوريين إلى ممارسة السياسة. هي، فقط، ثمن إعادة فتح الطرق غير السالكة إلى الحياة السياسية.

موقع «كلُّنا شركاء»، **3** كانون الأول **2013**

معادلة الحنجرة والعنق

كي نستطيع فهم مسألة فشل المرحلة السلمية في الثورة السورية في تحقيق هدفها المتمثِّل بإسقاط النظام، علينا التسليم بهذه الحقيقة البديهية البسيطة: الأنظمة التي تسقط بالمظاهرات السلمية هي تلك الأنظمة التي تؤمن بحدٍّ أدنى من الديموقراطية.

لقد كنّا كسوريين حالمين جداً، وغير واقعيين، حين ظننَّا أنَّ نظاماً شمولياً ذا نواة طائفية حديدية، ومفاصل طائفية حديدية، وقبضة طائفية حديدية، يمكن أن يسقط بالنضال السلمي.

إنَّ النتيجة التي لاقتها الثورة في مرحلتها السلمية هي النتيجة ذاتها التي كان سيلاقيها مريضُ السرطانِ إذا قرَّرَ التداوي بالمراهم.

لكلِّ داءٍ دواء. هذه حكمةٌ نفهمها ونُطبِّقها بسهولةٍ في حياتنا الشخصية، لكنَّنا أخذنا وقتاً طويلاً كي نستوعبها في السياسة.

لقد كنتُ من بين الذين تمنّوا أنْ يسقط النظام بالورود البيضاء (وليس الحمراء حتَّى)، ولكنَّ الأمنيات شيءٌ والواقع شيء آخر تماماً.

التشخيصُ نصفُ العلاجِ. ولكنْ للأسف لم يتوفَّر للسوريين طبيبٌ كونيٌّ يقول لهم في شهر آذار سنة 2011 إنَّ ثمن الحرِّية في بلادهم ليس الحنجرة، بل العنق!

لو توفَّر مثل هذا الطبيبِ الخرافيِّ لكان السوريون ربَّما أحجموا عن المتابعة، أو لكانوا فعلوا كما فعل أهل أثينا حين اعتمدوا آلية التصويت لتقرير ما يجب عليهم أن يفعلوه أمام الجيش الفارسي الغازي سنة 481 ق. م.

***

ربَّما يقول لي قائلٌ الآن: كيف تتَّهمون النظام بأنه هو من حوَّل الثورة السلمية إلى ثورةٍ مسلَّحةٍ ما دامت السلمية لا تُسقطه؟

والجواب هو أنَّ خوف النظام من المرحلة السلمية كان ناجماً فقط عن احتمال استجرار تدخُّلٍ خارجيٍّ كما حصل في ليبيا، وليس ناجماً عن خوفه من السقوطِ التلقائيِّ نتيجة المظاهرات.

فنظامٌ لا يؤمن بالسلمية لن يسقط بالسلمية. هذه قاعدةٌ وليست رأياً.

***

البارحة أصدرتْ «محاكم» هذا النظام أحكاماً بالإعدام على خمس شخصيات مدنيَّة، بينها أسماء تُعتبر ليس من حمائم المعارضة

فحسب، بل من «زغاليل» هذه المعارضة، لشدَّة نعومة أصحابها في انتقاد النظام. ومثل هذا الحكم يؤكِّد المؤكَّد في قولنا بأنَّ النظام يرفض الحلَّ السلميَّ بشكلٍ قاطعٍ، وبالتالي يؤكِّد، أيضاً، بأن طريق الحرِّية في بلادنا -ويا للأسفً- لا يمرُّ عبر الحناجر، وإنما عبر الأعناق!

موقع «كلُّنا شركاء»، **24** تـمُّوز **2015**

«جنيف 2»: تسويق اليأس

أُولى نتائج «جنيف 2» ستكون بدء الحديث عن «جنيف 3».

هذا لا يعني بأنَّه لن تترتَّب على هذا المؤتمر نتائج كبيرة، بل يمكننا القول بأنَّ نتائجَ أكبر مما نتوقَّع ستترتَّب عليه، لكنَّ هذه النتائج يُراد لها أن تكون حلقةً ضمن سلسلةٍ طويلةٍ. لذلك قلنا إنَّ الحديث سيبدأ عن «جنيف 3» و«جنيف 4»... إلخ.

نتائج خطيرة للغاية سيُفرزها «جنيف 2» على الثورة السورية التي نجح نظام الأسد وحلفاؤه بالتشويش عليها عبر تسهيل فتح الأقنية الجهادية (في تلاقٍ غريبٍ للمصالح بين النظام وخصومه الخليجيين)، ووضع بعض أجنحتها كعدوٍّ يحمل تصنيفاً رسمياً على قائمة الإرهاب الأميركية.

أكبر الخبائث الكامنة في «جنيف 2» هو أنه لا ينطوي على أيِّ حلٍّ سياسيٍّ، بل على تثبيت أوضاع، في معنى أنه لن يُنهي الصراع، بل سيُجمِّده عند حدود معيَّنة ستتحوَّل هذه الحدود إلى حدودٍ سياسيةٍ، في ما بعد، تفرض واقع التقسيم بين سوريَّتَيْن: سوريا أُولى

بيد النظام سيتفرَّغ (بعد تثبيت حدود النزاع) لإعادة القبض عليها بيدٍ من حديدٍ، وسوريا ثانية ستكون نهباً للفوضى المسلَّحة وصراع الكتائب والأيديولوجيات.

هذه النتيجة الكارثية التي سيُفرزها «جنيف 2» ستترتَّب عليها، حُكماً، سلَّةٌ من النتائج الضارَّة الأخرى، ليس أقلّها القضاء على فكرة إسقاط النظام، ونقل كتلة الصراع من كلِّ الأراضي السورية إلى الأراضي التي تسيطر عليها المعارضة وحصرها في تلك المنطقة. أضف إلى ذلك أنَّ النظام في ظلِّ ذلك التجميد سيكتسب -مع مرور الزمن- المزيدَ من الشرعية كونه نجحَ في تعميم صورة الصراع كمعركةٍ بين النظام والفوضى، بين وجود مؤسَّسات (تخضع للدكتاتورية) وغيابٍ تامٍّ لتلك المؤسَّسات، بين شكلٍ سياسيٍّ كريه ومنضبط ولا شكل سياسيّ تسوده الفوضى...

سنكون أمام الكثير من هذه المترادفات إذا ما انعقد مؤتمر «جنيف 2» وأنتج ثماره المسمومة.

سيقول البعض: أنت ضدّ الحلّ السياسيّ؟

وسأجيب بأنه لا يمكنني أن أكون ضدّ الحلّ السياسيّ في هذا الانسداد الدمويّ الذي أوصلنا النظام إليه، ولكنْ شرط أن يكون حلاً سياسياً بالفعل.

الجرعة السياسية الوحيدة التي سيُفرزها «جنيف 2» هي إعادة إسباغ الشرعية على بقاء النظام.

«جنيف 2» هو تسويق اليأس للقبول بالاستسلام. «جنيف 2» هو التطبيقُ الدوليُّ لشعار «الأسد أو نحرق البلد».

موقع «كلُّنا شركاء»، 2 تشرين الثاني 2013

عصفور المعتدلين والدَّبَق الأميركي

ذكَّرني خبرُ إلقاءِ «جبهة النصرة» القبض على المجموعة العسكرية المعتدلة التي قامت أميركا بتدريبها وتسليحها، بقصَّةٍ أليمةٍ حصلتْ معي في أيام الطفولة.

فقد حَدَثَ أنْ اصطاد أبي عصفوراً بواسطة الدَّبَق الذي دَهَنَ به شجرة الرمَّان، ثمَّ ربطه بخيطٍ لكي نتسلَّى به أنا وأخوتي.

والحقيقة أنَّ قلبي الرقيق آنذاك لم يتحمَّل ما يجري للعصفور المسكين، فانتظرتُ إلى أنْ نام أبي في فترة قيلولة ما بعد الظهر، وذهبتُ خلسةً إلى مكان ربط العصفور وفككتُ الخيطَ، ثمَّ فتحتُ باب البيت ورميته لكي يطير... فإذا هو في فمِ القطِّ!

لقد كان خطأي الفادح يومذاك عدم انتباهي إلى أنَّ الدَّبَق الذي ملأ جناحَي العصفور قد أفقدَهُ القدرة على الطيران، وبالتالي جعله لقمةً سائغةً للقطِّ الـمتربِّص.

***

لا أعرف كم في استطاعة هذه الحكاية أن تشرح، بتبسيطٍ شديدٍ، ما حدثَ مع المجموعة العسكرية المعتدلة التي ألقت القبض عليها «جبهة النصرة». فقد كان أفراد هذه المجموعة أشبه بذاك العصفور الذي قُذِفَ به ليطير فإذا هو في فم القطّ! والسبب هو «الدَّبَق» الأميركي الذي ملأ جناحَيْه!

فالسياسة الأميركية السلبية تجاه الأزمة السورية أفرغتْ كلَّ جهدٍ تقوم به الولايات المتحدة من معناه في نظر السوريين، حتَّى بات المتعاونون معها من المعتدلين موضعَ شبهةٍ لدى شريحةٍ واسعةٍ من الشعب السوري.

السوريون الذين طالبَ جزءٌ كبيرٌ منهم الولايات المتحدة بالتدخُّل بعدما أوغل النظام في ذبحهم، والذين هلَّلوا للضربة الأميركية التي لم تتمّ بسبب صفقة تسليم النظام لسلاحه الكيماوي، هم أنفسهم الذين باتوا اليوم يُشكِّكون بكلِّ حركةٍ أميركيةٍ تجاه الواقع السوري.

لقد فقدت السياسةُ الأميركيةُ «مصداقيتها» تجاه القضية السورية، وصارت موضعَ ريبةٍ وشكٍّ إلى درجة أنَّ خبر إلقاء «جبهة النصرة» القبض على المقاتلين الذين درَّبتهم الولايات المتحدة لم يُحدثْ أيَّ حالةِ تعاطفٍ شعبيٍّ مع هؤلاء المقاتلين.

أصلاً إنَّ النموَّ المتسارع للحاضنة الشعبية لـ«جبهة النصرة» (تنظيم القاعدة) في بلدٍ معروفٍ باعتدال شعبه كسوريا، إنَّما هو بسبب هذه السلبية الواضحة التي طبعتْ سياسةَ الرئيس الأميركي باراك أوباما تجاه المأساة السورية، والتي بلغتْ ذروتها في تسليم الملفِّ السوريِّ إلى روسيا، أو بالأصحّ تسليمه إلى مقاتلات روسيا.

***

لقد غيَّرتْ حكايةُ العصفور حياتي إلى الأبد، وعلَّمتني أن الجريمة يمكن أن تتمَّ أحياناً بحسن نيَّة. وبأنَّ إطلاق سراح عصفور غير قادر على الطيران هو في النتيجة مساوٍ لنتفِ هذا العصفور ورميه في مقلاة الزيت لوضعه كمُقبِّلات على مائدة العشاء.

موقع «كلُّنا شركاء»، **31** تـمُّوز **2015**

الإرهاب ما فوق البنفسجي

طائراتُ التحالفِ الدوليِّ التي تقصف مواقع «داعش» لم تستهدفْ، حتَّى الساعة، أياً من مواقع نظام الأسد، بل على العكس من ذلك، صارت طائرات النظام تشارك طائرات التحالف عمليات القصف.

مئات المجازر التي ارتكبها النظام لا تكفي على ما يبدو لوضعه في الخانة ذاتها التي يقف فيها تنظيم «داعش».

ومثلما لا ترى عينُ الإنسان الأشعةَ ما فوق البنفسجية، لا ترى عينُ المجتمعِ الدوليِّ إرهابَ النظام.

تقريباً، نحن أمام إرهابٍ ما فوق البنفسجيّ لا يمكن لعين الحلف الدوليِّ ضدَّ الإرهاب أن يراه!

***

السؤال الذي يطرح نفسه بقوَّة: ما هي المعايير التي يقيس عليها المجتمع الدولي (أو بالأحرى: الغرب) مدى قوَّة الإرهاب؟ وتالياً ما هي آلية التصنيف؟

وفي ظلّ عدم توافر معلومات رسمية عن هذه المعايير الافتراضية، دعونا نحاول العثور عليها:

عدد القتلى: إذا اعتبرنا أنَّ المعيار الأساسي الذي اعتمده الغرب لتصنيف قوة الإرهاب هو عدد الضحايا، فنحن أمام معضلةٍ كبيرةٍ لأننا إذا ما حسبنا عدد الناس الذين قتلهم نظام الأسد سنجده يزيد بأضعافٍ على عدد الناس الذين قتلهم تنظيم «داعش».

كيفية القتل: إذا اعتبرنا أنَّ المعيار الأساسي هو كيفية القتل، فثمَّة عشرات الفيديوهات لإرهاب نظام الأسد (قطع رأس، سلخ جلد، دفن الإنسان حيّاً...) لا تقلُّ وحشيةً عن وحشية «داعش».

أدوات القتل: إذا اعتبرنا أنَّ المعيار الأساسي هو أدوات القتل، فإرهاب نظام الأسد لم يُوفِّر أداةً يمكن استعمالها للقتل إلا واستعملها بما في ذلك السكاكين. بل إنَّه يتفوَّق على «داعش» في هذا المجال لجهة أنَّه استعمل صواريخ «سكود» والسلاح الكيماوي اللذين لا يملكهما «داعش».

أهداف القتل: إذا افترضنا أنَّ أهدافَ القتل هي المعيار الأساسي الذي اعتمده المجتمعُ الدوليُّ لتصنيف قوَّة الإرهاب، فـ«داعش» ونظام الأسد متساويان لأنَّهما يقتلان من أجل السلطة: «داعش» يقتل من أجل إقامة «دولة» إجرامية يزعم بأنها دينية، والأسد يقتل

من أجل الإبقاء على «دولة» إجرامية يزعم بأنها علمانية.

فإذاً على أيِّ أساسٍ، ووفق أيِّ معيارٍ، تـمَّ احتساب إرهاب «داعش» باباً أوَّلَ يستدعي إعلان الحرب، بينما تـمَّ احتساب إرهاب النظام باباً عاشراً لا يستدعي أكثر من المفرقعات الصوتية من إداناتٍ وبياناتٍ تكاد أحرفها لا تُقرأُ بعدما غطَّاها دمُ أطفال سوريا؟

ليس هنالك، إذاً، من تفسيرٍ سوى التفسير الساخر الذي قدَّمناه في العنوان، ألا وهو أنَّ إرهاب النظام هو إرهابٌ ما فوق البنفسجي لا يُرى بالعين المجرَّدة... أو بالأحرى لا يُرى بعينِ المجتمعِ الدوليِّ.

موقع «كلُّنا شركاء»، **6** كانون الأول **2014**

يقتلون البعوض ويتركون المستنقع

إذا قيل لكم بأنَّ أهالي قريةٍ ما، فيها مستنقعٌ، يقومون باصطياد البعوض بدل تجفيف المستنقع... فستقولون إنَّ أهالي تلك القرية هم مجموعة من الحمقى.

لكنَّ قادة التحالف الدولي ضدَّ «داعش» ليسوا بالحمقى، بل هم قادة عالمنا الحديث.

في سوريا مستنقع (نظام الأسد) جَذَبَ إليه كلَّ أنواع البعوض (الإرهاب)... والتحالفُ الدوليُّ بدل أنْ يُـجفِّف المستنقع (إسقاط النظام) يقوم باصطياد البعوض (قصف «داعش»).

المعادلةُ بسيطةٌ إلى درجة عدم قدرتنا على اتِّهام قادة التحالف الدوليّ بالـحُمْق. هم يعرفون تماماً بأنَّ نظام الأسد هو البيئة النموذجية لـ«داعش». بل يمكننا القول إنَّ نظام الأسد هو الحاضنة الثقافية لنموِّ البعوض «الداعشيّ». فالدكتاتورية هي العشُّ الدافئ لبيوض الإرهاب. ودجاجةُ الإرهاب لا تضع بيوضها إلا في

أعشاش الدكتاتور. والدول المنتجة للإرهاب هي تلك الدول المحكومة بأنظمةٍ شموليةٍ.

لكنَّ أجندة الغرب في بلادنا لها حسابات لا علاقة لها بالمنطق السياسي الطبيعي، بل بالمنطق السياسي غير الطبيعي (الإسرائيلي).

إنَّ حرباً طويلةً ستستمرُّ لعقدٍ من الزمن -كما يُقدِّر قادة التحالف- ستستكمل ثالث أضلاع مثلَّث التدمير السوري:

ما دمَّره جيش الأسد: ضلعٌ أول

ما دمَّره تنظيم «داعش»: ضلعٌ ثانٍ

ما دمَّره التحالف الدوليّ: ضلعٌ ثالث

وبعد ذلك لن يبقى شيء من «دولة الطَّوْق» المركزية التي كانت تُدعى سوريا.

سيتكفَّل مثلَّث الخراب هذا في تفتيت (وليس تقسيم) سوريا إلى دويلاتٍ وجُزُرٍ متناحرةٍ لم يكن أعتى الحالمين في إسرائيل ليحلم بها.

ما سمَّاه «البنتاغون» في 30 أيلول 2014 بـ«الصبر الاستراتيجي» في مكافحة «داعش»، ما هو في الحقيقة إلا «خديعة استراتيجية» أو «غطاء استراتيجي» لحرب طويلة الأمد تؤدِّي في نهايتها إلى أن تضع الحرب أوزارها وفق خريطة المصالح الإسرائيلية.

لستُ من هواة نظرية المؤامرة، لكنَّ أيَّ قراءةٍ عميقةٍ لما حصل ستقودنا إلى هذه النتيجة.

لذلك علينا كسوريين، اليومَ، الانتقال من مقولة إنَّ الأسد وحلفاءَه قد ساهموا بشكل مباشر في تسهيل ولادة «داعش»... إلى مقولةٍ أهمّ ألا وَّهي أن نظام الأسد هو البيئة المثالية لاستمرار هذا التنظيم وتمدُّده.

فبهكذا أطروحة نستطيع إحراج الأطروحة الغربية الماكرة التي أعطت البعوضة القدرة على حجب المستنقع!

الرئيسُ الأميركيُّ الذي يقول، اليومَ، إنَّ سوءَ تقديرٍ استخباراتياً هو ما أدَّى إلى نموٍّ «داعش» بهذا الشكل... كان يتلهَّى بآيفونه قبل أشهرٍ -كما ذكرت صحيفة «نيويورك تايمز»- في الاجتماعات الخاصة ببحث تداعيات الكارثة السورية.

تقريباً، لقد كان الرئيسُ الأميركيُّ يتلهَّى بآيفونه كما يتلهَّى المرءُ بأي شيءٍ ريثما ينضج الطعام على النار.

موقع «كلُّنا شركاء»، **2** تشرين الأول **2014**

«نظرية» علي مملوك

قبل أشهرٍ من اندلاع الثورة في سوريا، سرَّبَ موقع «ويكليكس» برقيةً مهمَّةً جداً تحدَّثت عن اجتماعٍ سرِّيٍّ جرى بين مدير المخابرات السورية علي مملوك ودانيال بنجامين منسِّق مكافحة الإرهاب في الإدارة الأميركية بتاريخ 18 شباط 2010. وكانت النقطة الأهمّ في الاجتماع هي قول (اقرأ: اعتراف) علي مملوك بأنَّ المخابرات السورية استطاعت اختراق العديد من الجماعات الإرهابية. فقد نقلت البرقية قول مملوك لبنجامين: «من حيث المبدأ نحن لا نهاجمهم أو نقتلهم على الفور، بل نقوم باختراقهم ونقوم بالتحرُّك في الوقت المناسب».

في هذا السطر الـمقتضب الوارد في البرقية على لسان مملوك، نقع على زبدة النظرية الأمنية للنظام السوري بخصوص الجماعات المتشدِّدة، حيث الدخول إلى تلك الجماعات والتحوُّل إلى جزءٍ منها، وهو ما يُسمَّى «الاختراق»، وهو ما سيوفِّر مـميِّزات عديدة للمخترِق -بكسر الراء- بينها ميزتان رئيستان:

الأولى: تنفيذ ضربات إرهابية ضدَّ الخصوم (الأميركيون في العراق، السياسيون المعارضون في لبنان... إلخ) من دون تحمُّل أيّ تبعات.

الثانية: حماية النظام بطريقة استباقية فعَّالة، لجهة أنَّ النظام، بهذا الاختراق، بات قادراً ليس فقط على التجسُّس على تلك المجموعات، بل أيضاً بات قادراً على توجيهها، وإنْ بشكلٍ نسبيٍّ.

مثل هذه التقنية التي تشبه حالة المراقبة في العتمة (حيث يكون في وسعك مراقبة الآخرين من دون أن يتمكَّنوا من مراقبتك) صنعتْ دوراً إقليمياً لنظام الأسد أجبر الأميركيين في فترات متعدِّدة على طلب التعاون السوري... وهذا التعاون -كما نعرف- صَرَفَهُ النظام في السياسة. وعموماً فإن الأدوار الأمنية في منطقة ملتهبة، كمنطقة الشرق الأوسط، غالباً ما يكون مردودها السياسي كبيراً جداً. أضف إلى ذلك أنَّ علي مملوك نفسه قام بمثل هذا الربط حين طلب في البرقية المذكورة «أن يكون العمل السياسي جزءاً من عمليات مكافحة الإرهاب».

وأرجو من القارئ أن يعطف هذا الطلب على طلب وفد النظام في مؤتمر «جنيف 2» جَعْل مسألة مكافحة الإرهاب عنواناً سياسياً للمؤتمر.

اليوم تزداد أهمية تلك البرقية في فهم حالة الفوضى التي أنتجها النظام كحلٍّ أخيرٍ لتفجير الثورة السورية من داخلها.

فجأةً، يفتح النظام سجونه لإطلاق المتشدِّدين في مقابل قيامه باغتيال الناشطين الـمدنيين. وفجأةً، نقرأ خبراً عن هروبٍ كبيرٍ لقادة «القاعدة» من سجن أبو غريب العراقي (يؤكِّد مسؤولون عراقيون كبار تورُّط نوري المالكي في عملية الهروب تلك، لنكون أمام عملية تهريب لا عملية هروب).

القادة «القاعديون» الهاربون من سجن أبو غريب صاروا في سوريا، وتحديداً في تنظيم «داعش». والمتشدِّدون السوريون الـمُفرَج عنهم، بعفوٍ مدروسٍ، أسَّسوا تنظيماتٍ مسلَّحةً تحمل فكراً متطرِّفاً.

أما «الجيش الحرّ» فيجد نفسه مضطراً للاختيار بين حربَيْن: فإمَّا حرب «داعش» وإمَّا حرب النظام.

عمليةُ خلطٍ خبيثةٍ جرتْ وتجري بين شكل الثورة ومضمون الإرهاب، ثمَّ بين مضمون الثورة وشكل الإرهاب.

الأميركيون وحلفاؤهم الغربيون فهموا خدعة النظام، لكنهم ادَّعوا تصديقها لأنهم غير راغبين في الانخراط في اللعبة ما دام الفعل يتطلَّب ما هو أكثر من الضربات الجوية، وما دامت هذه الخدعة تخدم مشروع تفتيت سوريا والمنطقة.

النظام فخَّخ الثورة من الداخل بمتشدِّدين أطلقهم في بداية الثورة، وبموجات تصفيات مرعبة لكلِّ الناشطين المدنيين. لقد عمل كلَّ ما في وسعه لإضعاف المناعة في المجتمع الأهلي السوري، وبالتالي لإفساح المجال أمام قيام حراك مسلَّح ترتَّبتْ عليه ثلاث نتائج هي في الحقيقة ثلاث مراحل: أولاً القضاء على المرحلة السلمية، ثانياً تحويل الثورة إلى مجرَّد نزاع مسلَّح، ثالثاً وضع المجتمع الدولي أمام خيار «أنا أو الفوضى»... هذه الجملة التي لا يكفُّ بشار الأسد عن الإيحاء بها في حواراته كلِّها... هذه الجملة التي لا يـمكن قراءتها إلا في ضوء «النظرية» الرهيبة لعلي مملوك.

موقع «كلُّنا شركاء»، **19** شباط **2014**

مثقَّفو الأسد
ونُذُر الضربة الأميركية

لم تكدْ نُذُر الضربة العسكرية الأميركية لنظام بشار الأسد تلوح في الأفق، حتى بدأ بعض المثقَّفين الموالين للأسد -وعلى العكس من جمهورهم- يرقصون فرحاً في مقالاتهم ومدوَّناتهم!

لماذا؟ لأنهم اعتقدوا بأنَّ هذه الضربة هي فرصتهم الكبرى للتطهُّر والاغتسال من الدم السوري الذي ظلَّت أقلامهم تلغُ فيه منذ أكثر من سنتَيْن.

لقد وفَّرت لهم حكاية الضربة الأميركية استعمالَ جُمَلٍ من طراز: «ظهرت حقيقة المؤامرة»، «هذا ما كنا نحذِّر منه»، «وأخيراً ظهر الأصيل بدل الوكيل»...

لا حصر للمزايا الدعائية التي وفَّرها لهم حديثُ الضربة الأميركية. ففجأةً صار بإمكانهم نطق كلـمة «ممانعة» بالفم الملآن. فجأةً صار بوسعهم تبسيط الـمسألة إلى حرب بين أميركا وأعدائها، وهم بالطبع كـ«ممانعين» لا يمكنهم أن يكونوا في «الصفِّ الإمبرياليِّ»

كما يردِّدون دائماً.

وبينما كان سياسيُّو محورهم يشعرون بالهزيمة الـمُحْدقة، كان هؤلاء الكتَّاب يشعرون بلذَّة النصر على أقرانهم من مثقَّفي الثورة السورية الذين أثبتت الضربة الأميركية المقبلة، بالدليل القاطع، أنهم «مثقَّفو الناتو»!

إن كتَّاباً لبنانيين وعرباً، مرتبطين بنظام الأسد وإيران، كانوا قبل اندلاع الثورة في سوريا من مُدَّعي التمرُّد وتحرير الشعوب، وبعد هبوب رياح الربيع العربي انخرطوا في تأييد الثورات ظنَّاً منهم أن نظام الأسد في منأى عن هذه الثورات، وجدوا أنفسهم في مأزقٍ كبيرٍ عند اندلاع الثورة الشعبية في سوريا.

ومثلما كان نظام الأسد يستجدي الحصول على صورة واحدة لأيِّ مسلَّحٍ في مطلع الثورة، كان هؤلاء يستجدون الحصول على أي جملة تشي بالإقصاء في أيِّ مقالةٍ لكاتبٍ مؤيِّدٍ للثورة. صاروا يتابعون بعض الصفحات الشخصية لكتَّابٍ سوريين من الدرجة العاشرة لاقتناص جملةٍ من هنا أو جملةٍ من هناك فيها شُبْهة كلامٍ طائفيٍّ. ولم يمرّ الشهر الأول من عمر الثورة السورية حتَّى كانت ازدواجيتهم قد فُضِحَتْ تماماً.

لذلك لم يجدوا حلَّاً إلَّا في شتم جميع الثورات العربية التي سبق

لهم أن امتدحوها، مع الادِّعاء بأنَّهم يُعيدون قراءة تلك الثورات بعدما تبيَّنتْ لهم حقيقة «المؤامرة». ولم ينجُ أحدٌ منهم من الاستعمال المتكرِّر لكلمة «الخريف»، بدل «الربيع»، حتى أن بعضهم بزَّ شعراءَ المرحلة الرومنطيقية في كثرة استعماله لهذه المفردة.

وهكذا بعدما ملأوا الصحف والمواقع بمدائح لثورات تونس ومصر وليبيا (سمّوا سقوط حسني مبارك بـ«سقوط نظام كامب ديفيد»)، عادوا وملأوا الصحف والمواقع ذاتها هجاءً لتلك الثورات. وذلك كلُّه، فقط، كي لا يظهروا بمظهر المتناقض والمزدوج عندما يتفرَّغون لتسليط سمومهم على الثورة السورية (شَتْمُ الثورات العربية لدى هؤلاء استثنى ثورة البحرين! ربَّما لأسباب «حداثوية» لا نعرفها ويحتفظ بها مثقَّفو جريدة «الأخبار»!).

لقد وضعت الثورة السورية أمثال هؤلاء في مكانهم الطبيعي ونزعتْ عنهم القناع الذي كانوا يتمايزون به عن زملائهم الأكثر ابتذالاً. لذلك لم نعد نميِّز بين بوق و«بروفسور»، بين شبِّيح و«مثقَّف ما بعد الحداثة» (على صفحته الشخصية، خاطبَ أسعد أبو خليل الشعبَ السوريَّ بـ«بني أُميَّة»!).

لقد جاءت أخبار الضربة الأميركية كحلٍّ سحريٍّ لمأزق هؤلاء، فمسحوا الدماء السورية عن وجوههم وخلعوا ثيابهم المدمَّاة

واغتسلوا ثمَّ مشَّطوا شعورهم ناظرين إلينا بابتسامةٍ عريضةٍ وهم يقولون: الآن تستطيعون التقاط صورةٍ لنا يا مثقَّفي «الناتو»!

موقع «أورينت نت»، 19 أيلول 2013

أميركا وروسيا في سوريا
أو حيلة باعة الكراجات

كلُّ من يعرف كراجات دمشق أو حلب لا يحتاج إلى من يحكي له الحيلة التي يتَّبعها الباعةُ هناك. لكنِّي سأرويها لمن لا يعرف تلك الكراجات:

فبينما الركاب ينتظرون انطلاق الباص أو البولمان، يصعد صبيَّان اثنان يحملان البضاعة ذاتها (بسكويت، علكة، جرابات...)، ويبدأ كلٌّ منهما بالمناداة على بضاعته بسعرٍ مرتفعٍ وموحَّدٍ. وفجأةً يصرخ أحدهما بوجه الآخر، ثمَّ يعلن تخفيض سعرٍ بضاعته قليلاً، فيردّ عليه الآخر بتخفيض السعر أكثر، وهكذا يستمرُّ «التحدِّي» بينهما، فينزلان بالسعر أكثر فأكثر حتَّى يصلا إلى سعر معيَّن، فينسحب أحدُهما من الباص وهو يصرخ متصنِّعاً الغضب... ليقوم الآخر ببيع بضاعته كلِّها.

فقط، الركَّاب الحمقى -وما أكثرهم!- هم من يصدِّقون تلك المسرحية المكشوفة، فيهرعون للشراء، حاسبينَ أنهم قد استفادوا

حقًّاً من «النزاع» الذي قد حصل بين البائعَيْن، فاشتروا بأرخص الأسعار!

***

تذكَّرتُ هذه الحيلة وهؤلاء الباعة المتواطئين مع بعضهم البعض، وأنا أتابع مـجريات وتفاصيل ما يُسمَّى، زوراً، «الخلاف» الروسي الأميركي في سوريا.

فلو كان ثمَّة خلافٌ حقيقيٌّ بينهما لرأينا الطائرات الروسية تتساقط كالذباب بفعل الصواريخ الأميركية المضادَّة للطائرات التي لا تسمح أميركا حتى الآن بتزويد معارضي النظام بها.

لو كان ثمَّة خلافٌ حقيقيٌّ بينهما لكنَّا على الأقلّ سمعنا ببعض التحرُّشات التي من المفترض أن تحصل بين الطائرات الروسية وطائرات التحالف في السماء السورية.

لو كان ثمَّة خلافٌ حقيقيٌّ بينهما لرأينا «الناتو» يستغلُّ حادث إسقاط تركيا للطائرة الروسية بشكلٍ مختلفٍ فلا يترك أردوغان وحيداً في مواجهة بوتين.

لو كان ثمَّة خلافٌ حقيقيٌّ بينهما لما سُمح لبوتين بنشر منظومة «صواريخ إس 400» بكل هذه الأريحيَّة.

لو كان ثمَّة خلافٌ حقيقيٌّ بينهما لسمعنا اعتراض إسرائيل

(الابنة الأميركية المدلَّلة) على الوجود الروسي في سوريا (على العكس من ذلك صارت إسرائيل تُنفِّذ عملياتها في سوريا بأمان أكثر).

***

لم نعد نحتاج إلى أدلَّةٍ أو تسريباتٍ للتأكُّد من أنَّ الملفَّ السوريَّ تـمَّ تلزيمه، أميركياً، إلى روسيا. سيفُ الوقائعِ على الأرض أصدق إنباءً من كلِّ كُتُب المحلِّلين والمسرِّبين. وقد جَاء مؤتمر «جنيف 3» كمسرحٍ بائسٍ لعرضٍ مسرحيٍّ أخلاقيٍّ أُمميٍّ زائفٍ، كتبَه الروس وأخرجه الأميركيون، من أجل التنصُّل من الواجبِ السياسيِّ والأخلاقيِّ تجاه النكبة السورية. وقد بلغَ هذا التنصُّل درجةً دفعتْ دولةً عظمى مثل الولايات الـمتحدة إلى استعمال حيلةٍ مكشوفةٍ وهزيلةٍ... ربَّـما كفَّ حتَّى باعة الكراجات عن استعمالها اليوم.

موقع «كلُّنا شركاء»، **6** شباط **2016**

المضمون السياسي لهتاف «يلعن روحك»

لا نعرف اسم المواطن السوري (أو المواطنة السورية) الذي كان أول من أطلق هتاف «يلعن روحك يا حافظ»، لكنَّنا نستطيع التقدير بأنَّه كان أحد هؤلاء المتظاهرين الذين ملأوا ساحات سوريا في المرحلة السلمية للثورة السورية.

والأكيد أنَّ هذا الهتاف -بسبب صيغته الهجائية وروحه الساخرة- جعل الكثيرين من مدَّعي الرصانة في القراءات السياسية يُـحجمون عن أخذه على محمل الجدِّ في المعنى السياسي، بل إن الأمر وصل بأحد هؤلاء حدَّ المناكفة عبر القيام بعكس مضمونه حيث قام بالترحُّم على روح حافظ الأسد!

والحقّ أنَّ القراءة التقليدية هي، فقط، من تَعتبر هذا الهتاف مجرَّد شتيمة، وتتغاضى عن مضمونه السياسيِّ الـمتعدِّد الأبعاد.

فهذا الهتاف هو أول صرخة سياسية تخرج بعد نصف قرنٍ من الاستبداد المطلق وخنق الحرِّيات والإرهاب الفكري والجسدي، ما

يعني أنَّ من حقِّه أن يحمل روح النقمة وروح الانفجار، والأهمّ: روح الارتطام الأوَّل بجسد السياسة الذي غُيِّبَ في أقبيةِ الحكمِ الأسديِّ مع عشرات الآلاف من معتقلي الرأي.

كما أنَّ اختيار فعل الشتم -كمضمونٍ سياسيٍّ- لم يأتِ عبثاً في بلدٍ يُعتبَر فيه شتمُ الرئيسِ كبيرةَ الكبائرِ التي ستذهب بفاعلها إلى غياهب السجون وأعواد المشانق، وبالتالي فالشعب بهذا اللعن يتحدَّى أكبر الكبائر التي وضعها النظام، كاسراً بذلك حاجزَ الخوفِ الذي بناه حافظ الأسد لبنةً لبنةً.

أضفْ إلى ذلك أنَّ روح التهكُّم التي صيغ بها هذا الشعار تحمل هجاءً سياسياً لشعارات المرحلة الآفلة، والتي قامت على اصطناع العبوس والجدِّية والبطولات، كما أن هذه الروح تُعبِّر إلى حدٍّ بعيدٍ عن الجيل الجديد الذي أصابه الملل والازدراء تجاه الزيف السياسي واستعماله «القضايا الكبرى» غطاءً لتمرير مشاريع أصحابه ومصالحهم.

وناهيك عن بُعد النكاية السياسية التي يتحلَّى بها هذا الهتاف ضدَّ شخصيةٍ يضعها المؤيِّدون في مرتبة القداسة، ثمَّة بُعدٌ آخر يمكن تسميته بـ«بُعد الحسرة السياسية»، حيث يعتقد الكثير من السوريين بأن هذه الثورة كان يجب أن تقوم في زمن حافظ الأسد باعتباره

أصل البلاء، ومؤسِّس كلِّ هذا الخراب الذي تعيشه سوريا.

وفي هذا الصدد تحضرني «لعنة» طريفة قالها أمامي أحد كبار السنّ من أقاربي. فقد سمعتُه ذات مرَّة يقول عن شخصٍ سبَّبَ له الكثير من الأذى من دون أن يتمكَّن من الانتقام منه: «لَعَنَهُ الله في جميع أجياله» (الجيل: مصطلحٌ ينتمي إلى قاموس التقمُّص الذي يؤمن به الدروز، ومعناه العُمْر الواحد الذي يعيشه الإنسان في جسدٍ واحدٍ قبل أن تنتقل روحه إلى جسدٍ جديدٍ وبالتالي إلى جيلٍ جديدٍ). يومها سألتُ ذلك الرجل عن معنى هذه اللعنة «المُتقمِّصة». فقال لي بأنه لا يشفي غليله لَعْن هذا الرجل في جيلٍ واحدٍ بل يجب على اللعنة أن تلاحق روحه في كلِّ «أجيالها» وتحرقها في أي جسدٍ حلَّتْ فيه.

موقع «كلُّنا شركاء»، **10** آب **2013**

نهاية أكذوبة «الدولة الوطنية»

يـمكننا اعتبار تاريخ 13 آب 2014 تاريخاً رسمياً لتأبين الأكذوبة التي رفعتها أنظمة الاستبداد العربي، ألا وهي أكذوبة «الدولة الوطنية». ففي هذا التاريخ تبنَّى البرلمان الليبي (بأغلبية 111 صوتاً من أصل 124) قراراً يدعو فيه المجتمع الدولي إلى «التدخُّل الفوري لحماية المدنيين».

وهكذا، بعد مضي عقود من الاستقلال الكاذب الذي عاشته بلاد العرب، نجد مؤسَّسةً، يُفترَض أنها تُـمثِّل إرادة الشعب، تطالب بعودة الوصاية الأجنبية!

***

إنَّ هذا الفشلَ الوطنيَّ والسياسيَّ والاجتماعيَّ والثقافيَّ -وكلَّ المترادفات الممكنة هنا- يضعنا في قلب المأزق الذي تراكمت فواتيره طوال العقود الفائتة، ولم يعد بالإمكان دفع تلك الفواتير إلا بالدم والخرائط.

لقد انتهت -ويا للمفارقة!- أكذوبة «الدولة الوطنية» بتصويتٍ

برلمانيٍّ! ولقد قال الشعب العربي، بعد عقودٍ، من «البَهْورة الثورية» بأننا ما زلنا قاصرين عن حكم أنفسنا بأنفسنا.

فلمْ يكن مصطلح «الدولة الوطنية» سوى قناعٍ لزمرة الاستبداد. لم يكن سوى حيلةٍ «ثوريةٍ» لحكم الأُسَر والطوائفً والمافيات.

فعلى مثال ما ابتذلت الأنظمة التسلُّطية العربية الكثير من المصطلحات والمفاهيم والشعارات، ابتذلت أيضاً مصطلح «الدولة الوطنية».

ومثلما تكوَّنتْ طبقاتٌ فاحشةُ الثراءِ بشكلٍ غير مشروعٍ تحت شعار «الاشتراكية»، ومثلما حُكمت الشعوبُ العربيةُ وفقاً لأُسسٍ طائفيةٍ وعشائريةٍ تحت شعار «الـمشروع القوميّ»، ومثلما أحكمَ الاستبدادُ قبضته تحت شعار «الديموقراطية الشعبية»... بُنيتْ دولُ العربِ على كلِّ ما هو مضادٌّ للوطن والوطنية تحت شعار «الدولة الوطنية».

اليومَ، تجدُ شعوبُ «الدول الوطنية» نفسَها في مأزقٍ حضاريٍّ صنعتْه أكاذيبُ الاستبدادِ وطبولُه الخاويةُ. فلمْ تفعلْ أنظمةُ «الدول الوطنية» أكثر من تعميق الانشقاقات الأفقية في المجتمع، ومن ثم تحويلها إلى انشقاقات شاقولية، وصولاً إلى «مأْسَسَتها» وجعلْها أشبه بقنابل موقوتة، وبالتالي تحويل الدولة إلى ما يشبه السيَّارة المفخَّخة

التي يمكنها (ظاهرياً) قَطْعَ مسافاتٍ طويلةٍ، ولكنَّها قد تنفجر في أيٍّ لحظة.

لذلك حين حانتْ ساعة الانفجار، لم يجدْ معمر القذَّافي إلَّا اللعبة العشائرية لينجوَ بها، ولم يجدْ بشار الأسد إلَّا اللعبة الطائفية لينجوَ بها، ولم يجدْ عبد الفتاح السيسي إلَّا لعبة الانقلاب العسكري لينجوَ بها.

«الدولة الوطنية» بنسختها العربية بدأتْ كقناعٍ، لكنَّ هذا القناع جَمَعَ الكثير من الديدان تحته حتَّى تآكل الوجه وانـمحى. وعندما اندلعت الثورات ونزعت القناعَ، لم نجد أنفاً وعينَيْن وفماً، بل وجدنا منظراً مرعباً.

البلاد تفكَّكتْ وراحتْ أجزاؤها تتطاير في دوَّامة عنفٍ لا يبدو بأنَّها ستنتهي في هذا العقد الثاني من القرن الحادي والعشرين، ولا يبدو بأنَّها ستنتهي قبل أن نمتلك شجاعةَ أنْ نصنعَ سلَّةَ مهملاتٍ عملاقةً نرمي بها أكاذيبنا «الوطنية» كلَّها.

موقع «كلُّنا شركاء»، **14 آب 2014**

محكمتا مصر، ومحكمة سوريا

أُريدَ لتبرئةِ الرئيس المصري السابق حسني مبارك أنْ تكون تبرئةً للنظامِ العربيِّ كلِّه. هذا ما أراد صانعو «المحاكمة» قوله. ولو قُيِّض لنا رؤية وجه الرئيس التونسيِّ المخلوع زين العابدين بن علي، وهو يتابع وقائعَ هذه المسرحية، لوجدناه باشّاً مسروراً.

كذلك أُريد لإدانة الرئيس المصري المعزول محمد مرسي أنْ تكون إدانةً للثورات العربية كلِّها، وإدانةً للصناديق الانتخابية التي أفرزتْها، بل إدانةً للممارسة الديموقراطية بحدِّ ذاتها.

الثورة المضادَّة -في أخطر تجلِّياتها المصرية- انتقلتْ إلى مرحلة الهجوم، بعد مرحلةٍ دفاعيةٍ استوعبتْ خلالها جميعَ الصدمات.

***

حين قام الجنرال عبد الفتَّاح السيسي بانقلابه، قلتُ يومذاك بأنَّ هذا الانقلاب سيكون بمثابة «كرسي كشف الكذب» بالنسبة إلى المعارضين السوريين؛ فمن أيَّد انقلاب السيسي هو في دخيلته لا يمكن أن يكون مع الثورة السورية. أو كي لا أكون مُـجحفاً في

الحكم: من أيَّد انقلاب السيسي لا يمكن أن تكون علاقته على ما يرام مع الثورة السورية.

ليس لأن الذين تـمَّ تأييد السيسي خوفاً منهم (الإسلاميون) يُشكِّلون الجزء الأكبر من الفصائل الـمقاتلة في سوريا، بل لأنَّ هؤلاء المعارضين السوريين المؤيِّدين للانقلاب ما زالوا ينظرون إلى استبداد العسكر كفعلِ خلاصٍ طهرانيٍّ يستحقُّ التصفيق والتهليل.

واللافت أنَّ هؤلاء قد صمتوا صمتاً تامَّاً عن محكمتَي العار (محكمة مبارك ومحكمة مرسي)، مُضيِّعين بذلك فرصتَيْن سانحتَيْن لشرح موقفهم السابق وتبريره.

وطبعاً ما أكتبُه هنا ليس موقفَ تفضيلٍ شخصيٍّ بين مبارك «العلمانيّ» ومرسي الإخوانيّ، بل هو موقفٌ مبدئيٌّ تفرضه أخلاق الثورة التي نزعم الانخراط فيها.

أصلاً، إنَّ مسائلَ مثل الانتماء السياسي، لا يجب أن تكون عقبةً في طريق اتِّـخاذنا الموقفَ الـمبدئيَّ الواضحَ من محاكمات سياسية جائرة ليس لها أيُّ فرصةٍ للتبرير أو للدفاع عن نفسها.

ناهيك عن أنَّ ازدواجية الموقف (بين تأييد الاستبداد في بلدٍ وتأييد الثورة في بلدٍ آخر) تُفْقِدُ صاحبها الـمنصَّةَ الأخلاقيةَ التي يُطلق مواقفه منها.

بمعنى ما، كانت محاكمتا حسني مبارك ومحمد مرسي محاكمةً أخلاقيةً لبعض المعارضين السوريين؛ الذين أثبتوا بأنَّهم في قرارة أنفسهم لا يثقون بشعبهم الذي تعالوا عليه قبل الثورة... وتعالوا عليه بعد الثورة.

موقع «كلُّنا شركاء»، 22 أيّار 2015

المعارضة والثورة: الكسيح والعداء

ليس من المبالغة في شيءٍ القول إنَّ الفرق بين الثورة والمعارضة هو الفرق بين الشهيد والمتسلِّق. فلمْ تعرف ثورةٌ من الثورات هذا البون الشاسع بين الثوَّار والقادة السياسيين. وإذا قال قائلٌ إنَّه دائماً ما يكون هنالك انتهازيون في كلِّ ثورةٍ، سيكون جوابنا بأن هذه المسافة الكبيرة الفاصلة بين الجهتَيْن لا يمكن ردمها بأيِّ مثالٍ من الماضي، فقد بلغ هذا البون حدودَ الفحش والجريمة.

الثوَّار يموتون من الجوع ويتقاسمون القهر، والمعارضون يموتون من التخمة ويتقاسمون المناصب.

اللاجئون يقضون من البرد في مخيَّماتهم، أمَّا البطَّانيات التي وصلتْ باسمهم فقد باعها بعض المعارضين إلى الفنادق المحلِّية.

هذه معارضةٌ تستحقُّ سَوْقها إلى المحاكمات... لا إلى المؤتمرات.

والحقيقة أنَّ أعداء الثورة السورية استغلُّوا هذه المعضلة الكَأْداء، فخلطوا -عن عمدٍ- بين المعارضة والثورة، مُسبغين مساوئَ

مؤسَّسات المعارضة وأخطاءَها على الثورة، جاعلين منها تجمُّعاً للُّصوص والانتهازيين. ومثل هذا الخلط، حين يستعمله إعلامٌ يتبع غرفةَ عملياتٍ مركزيةٍ، يصبح ذا مردودٍ كبيرٍ على أرض الواقع.

لقد كان لعجز الثورة عن إنتاج قياداتها الـمُعبِّرة والقادرة والنظيفة ثمنٌ باهظٌ. وكان لغياب الكفاءات عن مراكز القيادة في الثورة أثرٌ واضحٌ في تأخير حسم المعركة.

انتصارات الثورة عسكرياً لم تُترجَم سياسياً بما يخدم السوريين، بل تُرجمتْ على شكل مبادراتٍ مزيَّفةٍ لحلفاء النظام.

افتقدتْ مؤسَّساتُ المعارضة حسَّ المبادرة، وفاقمَ من ذلك تبعيةُ أجنحتها لأجندة الدول المتناقضة، ما جعل جمهور الثورة يتوه على أرض الواقع أكثر فأكثر.

إنَّ الفراغ السياسي الذي خلَّفه الأداءُ الكارثيُّ للمعارضة تمَّ ملؤه بتدخُّلات الخارج. ونتيجة لذلك تُرِكَت الثورةُ رهينةً لدى المموِّلين الذين حَسِبوها استثماراً رابحاً فافتتحوا دكاكينهم فيها.

كما أن تقديم المعارضة أسوأَ نموذجٍ للـمؤسَّسات -حيث غياب المحاسبة وحضور النهب وصراعات المكاسب والتشرذم السياسيّ- شَجَّعَ قطاعاتٍ لا بأس بها داخل الثورة على التساهل في مسائل خطيرة تتعلَّق بالنزاهة وولاء البندقية.

في المحصلة يمكننا القول إنَّ المعارضة السورية لم تكتفِ بفشلها في عكس جوهر الثورة في مؤسَّساتها، بل إنها ساهمتْ أيضاً في تشويه هذا الجوهر.

وفي نهاية الأمر، صرنا كما لو أنَّنا أمام كسيحٍ جاء ليُمثِّلَ دورَ العدَّاء!

موقع «كلُّنا شركاء»، **29** حزيران **2015**

غرفة مركزية
لإدارة الثورة السورية

كان افتقاد «الرأس» في الثورة السورية أمراً يُساق على سبيل المديح لها في بدايتها، لكنه اليوم تحوَّل إلى كارثةٍ ووَبَالٍ عليها.

والرأس هنا لا يعني القائد فقط، أو ظهور الشخصية الكارزماتية التي يتمُّ التوافق عليها لقيادة الثورة -كما حصل في الثورة السورية الكبرى مثلاً- بل أيضاً وجود غرفةٍ وطنيةٍ مركزيةٍ تضع السياسات العامَّة للثورة وتحدِّد بوصلتها، وكذلك تضبط حدود البراغماتية فيها، بحسب كلِّ طورٍ من أطوارها.

غرفة مركزية مكوَّنة من كفاءات سورية سياسية وعسكرية وإعلامية وخبراء في شتَّى المجالات لإدارة المعركة بعيداً عن ضغوط الأضواء الإعلامية.

إنَّ افتقاد الثورة السورية لوجود هذه الغرفة المركزية لم يُتح المجال فحسب لتعدُّد الرؤوس بشكلٍ وبائيٍّ، بل أيضاً -وهذا هو الأخطر- أتاح المجال لتعدُّد السياساتِ الضارَّة التي حوَّلت الثورة

إلى جُزُرٍ عسكريةٍ وسياسيةٍ وإعلاميةٍ متناحرة.

على سبيل المثال، كنتُ ألحُّ دائماً على ضرورة إنشاء غرفة إعلام مركزية للثورة، لكي تُدير المعركة ضدَّ إعلام الأسد الأكثر تنظيماً، وتُنهي حالة الشرذمة الإعلامية التي أضرَّتْ بصورة الثورة وأهدافها وزعزعت الثقة الشعبية بها، إضافةً إلى تنفيرها الشريحة الرمادية الوازنة في سوريا والتي كان يمكن لانحيازها أن يُحدث فرقاً حاسماً. لكنَّ صوت أمثالي من المستقلِّين ذهبَ كصرخةٍ في وادٍ، لأن تعدُّد ولاءات المعارضة السورية لدولٍ خارجيةٍ جعلَ إنشاء مثل هذه الغرفة المركزية أمراً مستحيلاً، حيث أدَّى تضارب مصالح تلك الدول إلى التضارب في الرؤى والتوجُّهات.

لذلك فإنَّ إنشاء مثل هذه الغرفة المركزية للثورة هو حماية بالدرجة الأولى للأجندة الوطنية، وكذلك هو بمثابة «الترشيد» الضروريّ للتدخُّلات الخارجية بحيث تتوافق مع تلك الأجندة الوطنية بحدودٍ مدروسةٍ.

جميع مؤسَّسات المعارضة المتعاقبة («المجلس الوطني»، «الائتلاف»، «الحكومة المؤقَّتة»...) لم تنجحْ في أن تكون بديلاً لتلك الغرفة بسبب اختلاف الطابع الوظيفيّ لعمل التشكيل السياسيّ المفتوح والمعلن، وعمل الغرفة المركزية السرِّي.

إنَّ العائلة الصغيرة، المكوَّنة من بضعة أفراد، حين تكون بلا «رأس» في أوقات الأزمات تواجه الضياع أحياناً، فكيف إذا كانت هذه العائلة (عائلة الثورة) مكوَّنةً من ملايين الأفراد الذين يعرفون فقط ما لا يريدونه، أي بقاء النظام، لكنَّهم إلى اليوم لا يعرفون ما الذي يريدونه: شكل سوريا ما بعد إسقاط النظام، على سبيل المثال لا الحصر!

موقع «كلُّنا شركاء»، **17** تـمُّوز **2015**

الدعاية الجنسية ضد الثورة

«تبيَّنَ للشابَّة السورية لينا أنَّ «الثورة» كانت مبنيةً على الحاجات الجنسية والرغبات أكثر منها لتحقيق مطالب مشروعة»
جريدة «السفير» اللبنانية، 22 تـمُّوز 2013

لم تُستخدَم الدعايةُ الجنسيةُ في حربٍ أو ثورةٍ مثلما استُخدمتْ من قبل إعلام نظام بشار الأسد (والذين يدورون في فلكه) لتشويه سمعة الثورة السورية وصورتها. فلمْ يتركْ إعلامُ النظام خاطرةً تمرُّ في بالِ شخصٍ مريضٍ نفسياً وجنسياً إلَّا واستعملها، حتَّى بات من حقِّ المرء أن يظنَّ بأنَّ النظام استعان فعلاً بأخصائيي علم نفسٍ جنسيٍّ لإدارة هذه الحرب النفسية القذرة التي تدرك جيِّداً حساسيةَ الصورةِ الأخلاقيةِ لدى مجتمعٍ محافظٍ كالمجتمع السوري.

وفي هذا الصدد يمكننا تسجيل عشر ملاحظات أساسية تُلخِّص المراحلَ التي مرَّتْ بها، والأدوات التي استعملتها، والذهنية التي قامت عليها، هذه الدعاية:

الملاحظة الأولى: بدأ النظام باستخدام الدعاية الجنسية منذ

الأيام الأولى للثورة، فنحن نذكر بأنه في حادثة استشهاد الفتى حمزة الخطيب، أوكلَ النظامُ إلى أحد أبرز أبواقه الإعلامية الظهور على قناة «الجزيرة» للقول إنَّ حمزة الخطيب كان ذاهباً لاغتصاب زوجات الضبَّاط وبناتهم، لذلك تـمَّ قتله وقطع عضوه الذكري!

الملاحظة الثانية: ركَّز إعلام النظام على الاستهداف المباشر لشرف النسوة السوريات في مخيَّمات اللجوء، ابتداءً من المخيَّمات التركية، من خلال نشر أخبارٍ ملفَّقةٍ عن حالات إجهاض كثيرة تـمَّت هناك، وليس انتهاءً بمخيَّم الزعتري الذي جعله إعلام الأسد مكاناً لممارسة الدعارة مع اللاجئات. وكان هذا الاستهداف لسوريات المخيَّمات هو المرحلة الأولى في الدعاية الجنسية المضادَّة للثورة.

الملاحظة الثالثة: وضعَ إعلام النظام عنواناً مدروساً للمرحلة الثانية من تلك الحرب الدعائية، ألا وهو «جهاد النكاح» (أول من روَّج له تلفزيون «الميادين» المموَّل إيرانياً). وكان الهدف من وراء هذا العنوان -كما لا يخفى على أحدٍ- تحويل الثوَّار إلى زُمرةٍ من مرضى الجنس ومهووسيه، وبالتالي تحويل الثورة من حالة تقويم سياسية إلى حالة انحراف جنسية. ناهيك عن تحويل فكرة الثورة نفسها إلى حالة جهادٍ كاريكاتوريٍّ، وبالتالي فصل مفهوم الثورة

عن محمولاته التحرُّرية المدنية، وربطه بحروب المعتقدات الدينية إنَّـما بصيغةٍ جنسيةٍ مَرَضيةٍ.

الملاحظة الرابعة: قدَّم إعلامُ النظام تفسيراتٍ جنسيةً غرائبيةً حول الكثير من الأحداث. فعلى سبيل المثال، تـمَّ تفسير صمود المقاتلين في عين ترما على الشكل الآتي: «تحويل عين ترما إلى نقطة حيوية حيث الجنس المجانيّ، بالإضافة إلى إعطائه الطابع الشرعيّ، كان إحدى الطرق التي تساعد على إبقاء السكان داخل المنطقة» (حرفياً كما نقلتْ -بحماسةٍ كبيرةٍ- جريدة «السفير» اللبنانية عن تقريرٍ رخيصٍ مدفوع الثمن في مجلَّة «كاونتر بانش» الأميركية اليسارية).

الملاحظة الخامسة: استهدف إعلام النظام الكثيرَ من الشخصيات العسكرية المعارضة والناشطين الميدانيين بأسلوب الدعاية الجنسية، من خلال قرصنة اتصالاتهم أو صفحاتهم الالكترونية ونشر فيديوهات أو صور لهم في وضعيات جنسية معيَّنة، بعضها مع فتياتٍ موفداتٍ من قبل المخابرات خصِّيصاً لهذه المهمَّة. والأمثلة معروفة وعديدة في هذا الصدد.

الملاحظة السادسة: روَّج إعلام النظام لأخبارٍ (بعضها هو الذي ساهم في نشره في صحف ومواقع عربية تدور في فلكه) تخصُّ كرامة

اللاجئات السوريات في أخبار لا تحمل دلالةً جنسيةً مباشرةً، لكنَّها قوية الإيحاء في إظهار المرأة السورية اللاجئة مستعدَّةً للتنازل عن كرامتها في سبيل لقمة العيش. وفي ذلك فضح النظام زيف مدنيَّته حيث أثبت بأنه ينظر إلى المرأة نظرة عشائرية متخلِّفة كـ«ضلع قاصر» وموضع استهدافٍ سهلٍ من الناحية الجنسية. وكمثال على ذلك نجد أخباراً لا تُحصى تتحدَّث عن المتسوِّلات السوريات، حتَّى وصل الأمر بجريدة «القدس العربي» أن تُعنون صفحتها الأولى في العدد الصادر بتاريخ 15 تـمّوز 2013 بالعنوان الآتي: «اللاجئات السوريات يسحبن البساط من المتسوِّلات اليمنيات»! وبالطبع، كان إعلام النظام يحتفي بمثل هذه الأخبار ويُروِّج لها على أوسع نطاق.

الملاحظة السابعة: استهدف إعلام النظام الفنَّانين المعارضين عبر فبركة شائعاتٍ جنسيةٍ حولهم، أو تركيب صور جنسية، ببرامج مثل «فوتوشوب»، تستهدف الفنَّانات المعارضات تُظهرهن بأثداء كبيرة جداً ومترهِّلة، أو حتى إعادة نشر صور قديمة لبعض الفنَّانين في وضعياتٍ مَرِحَةٍ على أساس أنَّها صور حديثة تُظهر الفنَّانَ الـمعارضَ بمظهر الـمُستهتر بـما يحدث في بلده والذي لا همَّ له سوى ملاعبة الراقصات، كما حصل مع أحد الفنَّانين المعارضين حيث أعادتْ مواقع النظام نشر صورة قديمة له مع إحدى الراقصات

ضمن خبر معنون بـ«جمال سليمان في وضع جنسيّ فاضح مع راقصة».

الملاحظة الثامنة: واظب إعلام النظام على إطلاق ألقابٍ جنسيةٍ على الشخصيات القيادية في المعارضة، فعلى سبيل المثال حين تولَّى الشيخ معاذ الخطيب رئاسة «الائتلاف الوطنيّ» أطلقتْ عليه المواقع الالكترونية التابعة للنظام لقب «شيخ العادة السرِّية» على اعتبار أنَّ لديه فتوىً سابقةً في العادة السرِّية. وعندما انتُخب عبد الباسط سيدا رئيساً لـ«المجلس الوطني» ظَهَرَ على التلفزيون الرسميّ من قَلَبَ كنيته «سيدا» إلى «إيدز». وكذا حصل مع خليفته جورج صبرا الذي استبدلتْ بعض مواقع النظام حرفَ الصاد في كلمة «صبرا» بحرفٍ آخر لتصبح الكلمةُ اسماً من أسماء أحد الأعضاء التناسلية.

الملاحظة التاسعة: حرصَ إعلام النظام على الربط الدائم بين فعل الاستشهاد في الثورة وحكاية حوريات الجنَّة، في معنى تفريغ الشهادة من محتواها البطوليِّ وملئها بمحتوىً جنسيٍّ، وبالتالي إظهار الثوَّار في مظهر المكبوتين جنسياً، وإظهار الشهادة كعملية تفريغ جنسيٍّ.

الملاحظة العاشرة: استغلال بعض الحالات الفردية التي ارتُكبتْ فيها جرائمُ متَّصلةٌ بالجانب الجنسيِّ، وتضخيمها، ثمَّ

تعميمها كصورةٍ شاملةٍ للثورة السورية.

***

في المحصلة، رَبَطَ إعلامُ النظام الثورةَ السوريةَ بـماكينةٍ إعلاميةٍ جنسيةٍ هائلةٍ، سرَّبت الجنسَ الـمَرَضيَّ في كلِّ الشقوق والتفاصيل الإخبارية المتعلِّقة بالثورة بغرض تشويهها (لم تتوانَ وكالة «سانا» الرسمية عن بثِّ خبرٍ يفيد بأن قوَّات الأمن داهمتْ مقرّاً للمسلَّحين ووجدتْ فيه «أسلحةً وملابسَ نسائيةً داخليةً»!). ولم يدَّخرْ هذا الإعلامُ وسيلةً للاستهدافِ الجنسيِّ للثورة إلَّا واستعملها، حتى تحوَّلت بعض وسائله الإعلامية إلى حالةٍ مَرَضيَّةٍ يمكن تسميتها بلا تردُّد: «إعلام النكاح».

موقع «كلُّنا شركاء»، **28** تـمُّوز **2013**

الخطاب الطائفي في الإعلام الرسمي

قبل اندلاع الثورة في سوريا، طالما سمع السوريون في إعلامهم الرسميِّ اسمَ «وادي النضارة» كاسمٍ بديلٍ عن الاسم الحقيقيِّ «وادي النصارى» الذي يُشير إلى هويةٍ دينيةٍ مباشرةٍ لسكّان هذه المنطقة التاريخية الرابضة في قلب سوريا. لكنَّ الاسم القديم سرعان ما عاد إلى الإعلام الرسميِّ بعد اندلاع الثورة!

فاليوم باتَ مُشاهدُ الفضائيةِ السوريةِ يسمع اسمَ «وادي النصارى» مُـجلجلاً ناصعاً من فم الـمذيع أو الـمذيعة، مع حرصٍ كبيرٍ على نطق الأحرف في أوضح صورها.

قبل فترة قصيرة صُدِمَ كثرٌ من السوريين وهم يسمعون سياسياً لبنانياً مؤيِّداً للنظام يستخدم -من على شاشة الفضائية السورية- مصطلحاتٍ مثل: «أنا كدرزي»، «درزيتي لا تسمح لي»، «نحن الدروز...»... إلخ. فمثل هذا الخطاب كان ممنوعاً -بطريقة أقرب إلى التحريم- قبل سنتَيْن من اليوم في الإعلام الرسميِّ.

الأمر ذاته ينطبق على المقابلات التي يُجريها هذا الإعلام مع شخصياتٍ لبنانيةٍ تتحدَّث بكلِّ أريحيةٍ عن سُنَّة وشيعة وعلويين ودروز ومسيحيين... لا بل إن الـمذيعين غالباً ما يُحرِّضونهم على هذا النوع من الكلام عبر طرح أسئلةٍ ذات طابعٍ طائفيٍّ، أو أسئلةٍ تفتح المجال للحديث بشكلٍ طائفيٍّ واضحٍ لا لبسَ فيه.

والحقيقة أنَّ التناقضَ الحادَّ بين ما كان عليه إعلام النظام قبل الثورة، وما صار إليه بعدها، تناقضٌ كاذبٌ. فنحن أمام لعبة من أقدم الألعاب البشرية: لعبة القناع والوجه.

فما حصل في الإعلام الرسمي هو، فقط، اضطرار النظام لخلع القناع عن وجهه بعدما مزَّقت الثورةُ معظمَه. وقد يتساءل المرءُ عن سبب تخلِّي النظام عن سياسته السابقة وتبنِّي ما هو عكسها. والجواب هو أنَّ هذا التخلِّي ليس في واقع الأمر إلَّا عودة إلى الأصل.

فقد كان النظام في الماضي يمنع الحديثَ عن الطائفية ليس لأنه غير طائفيٍّ، بل على العكس تماماً؛ هو يمنع الكلامَ عن الطائفية لأنه نظامٌ طائفيٌّ. فالحديث عن سُنَّة وعلويين سيجعل السوريين لا يتساءلون فقط عن مدى شرعية حكم حافظ الأسد، بل عمَّا يحصل في أجهزة الدولة، العسكرية والأمنية والمدنية على السواء، من تمييز

طائفةٍ معيَّنةٍ وخصِّها بالمناصب القيادية والحسَّاسة دون سواها.

فإذاً، الفرقُ شاسعٌ بين أنْ يمنع نظامٌ الخطابَ الطائفيَّ لأنه نظامٌ علمانيٌّ، وبين أن يمنعه لأنه نظامٌ طائفيٌّ.

ومن أجل تمرير خطابه الطائفيِّ، من دون أن يبدو ذلك مناقضاً لـ«علمانيته» الـمزعومة، استخدم النظام هاتين الـحيلتَيْن:

الحيلة الأولى: استعانته بإعلاميين وسياسيين لبنانيين، مشهورين بلغتهم الطائفية، وبذلك تظهر المسألة وكأنها عفوية وخارجة عن إدارة الإعلام الرسميِّ.

الحيلة الثانية: التلطِّي وراء حدثٍ أمنيٍّ ما لإمرار الرسائل الطائفية المفخَّخة، حيث نجد التركيزَ الإعلاميَّ على إصابة كنيسةٍ بقذيفة هاون، مقابل التعتيم الكامل على هدم مئات المساجد. أو جعل خبر تفجيرٍ في منطقة ذات غالبية مسيحية خبراً رئيسياً على مدار اليوم، في مقابل اعتبار ضحايا مجزرة (ارتكبها الجيش بالقرب من تلك المنطقة) إرهابيين ومجرمين. أو استخدام تعابير معيَّنة عند الحديث عن منطقةٍ ما تقطنها أقلِّية معيَّنة للقول بأنَّ هذه الأقلية مع النظام قلباً وقالباً (على سبيل المثال، يواظب الإعلامُ الرسميُّ على الاستخدام المكثَّف لتعبير «بمساعدة الأهالي» لدى الحديث عن السويداء أو جرمانا).

الإعلامُ الرسميُّ، اليومَ، نزعَ قناعه «العلماني» بشكل كامل، وبات إعلاماً طائفياً صريحاً. فنحن نذكر أنه في بداية الثورة كان حريصاً، مثلاً، على إبراز لقطاتٍ لجنودٍ سمرِ البشرة من الجزيرة السورية، أو إجراء مقابلات ميدانية مع جنودٍ ذوي لهجات مدنيَّة، لكي يُقال بأنَّ الجيشَ السوريَّ جيشٌ غير طائفيٍّ، وبأنَّ جنوده، في غالبيتهم العظمى، هم من طائفةٍ غير طائفة رأس النظام. لكنَّه اليوم بات، على النقيض مـمَّا سبق، حريصاً على إبراز جنودٍ من ذوي اللهجة الساحلية، في محاولةٍ منه لشدِّ عصب الطائفة التي باتت وقوداً لإطالة عمر النظام في حربه ضدَّ السوريين.

إنَّ استخدام المجرم مهراج أورال (علي الكيَّالي) لتعبير «التطهير» أثناء وصفه لِـمَا حدثَ من مجازر طائفية في بانياس (في فيديو سرَّبه النظام بنفسه وبثَّته القنواتُ المناهضة له) لم يأتِ عفو الخاطر؛ فقد وجد نظام الأسد حيلةً ثالثةً: استخدام الإعلام الـمُعادي له لإمرار رسائله الطائفية!

موقع «كلُّنا شركاء»، **24** أيَّار **2013**

عن إقالة الوزيرة المحجبة

إقالة الوزيرة كندا الشمَّاط، بعد صورتها وهي تحضن الضابط سهيل الحسن، سببُها ببساطةٍ أنَّها خرجتْ عن الدور المرسوم لها. فالنظام المتَّهم بالطائفية أتى بوزيرة محجَّبة ليدَّعي بأنَّه يُـمثِّل جميع الطوائف السورية، وبالأخصّ طائفة الأكثرية السُّنِّية. وبعد انتشار صورة الوزيرة المحجَّبة، وهي تحضن ضابطاً على الملأ، فقدتْ صدقيةَ تمثيلها كامرأةٍ سُنِّيةٍ محافِظةٍ.

فإذاً من دون قصدٍ، أنهتْ كندا الشمَّاط -بهذه الصورة- الدورَ المرسومَ لها، فأقالها النظامُ.

الديكور لدى نظام الأسد أهمّ من النصّ. الديكور في كلِّ شيءٍ هو الأساس: من فلسطين إلى الجولان إلى العلمانية إلى الإيمان... وصولاً إلى التمثيل الطائفيِّ في مؤسَّسات الدولة.

إنَّ تعيين وزير دفاعٍ مسيحيٍّ بلا صلاحياتٍ، ووزير إعلام سنِّيٍّ بلا مبادئ، وتعويم ضابطٍ درزيٍّ بلا أخلاقٍ، نهجٌ لا غنى عنه لدى هذا النظام، لأنه خلف هذا النهجِ - الديكورِ يستطيع ممارسة ما

يحلو له من نَهْشٍ طائفيٍّ لمؤسَّسات الدولة كلِّها.

لقد حرصَ النظامُ الطائفيُّ في سوريا، أشدَّ الحرص، على قَلْبِ «سحَّارة» المجتمع السوريِّ، ليصبح الرديءُ في الواجهة، والجيِّدُ في القعر، وهو ما سبق أن أسميتُه من قبل بـ«سياسة تعويم الحثالة»(*). حيث تسيَّدتْ حثالةُ الطوائفِ الدولةَ والمؤسَّساتِ والمجتمعَ. وحين يسود حثالةُ القومِ مجتمعَهم، تتحوَّل الـمشكلة إلى أزمةٍ داخليةٍ تعصف بقلبِ هذا المجتمع، مفكِّكةً إيَّاه إلى عناصره الأولية، الـمَا قبل الدولة، والقائمة غالباً على عَصبيَّاتٍ بائدةٍ ورثَّةٍ، تستمدُّ نوعَها (الطائفيّ أو العشائريّ أو المناطقيّ أو العائليّ...) من شكل الصراع الذي تـمَّ زجُّها فيه، ليقوم النظام بعد ذلك بإدارة تلك الصراعات عبر أذرعه الأمنية والاجتماعية.

الديكور الذي، من خلفه، استُملكت الدولةُ لمصلحة طائفةٍ معيَّنةٍ، تـمَّ انتقاؤه بعنايةٍ شديدةٍ من قعر «سحَّارة» الطوائف التي تـمَّ قَلْبُها. إنَّه ديكورٌ من مادَّة رديئة، لكنَّه مثاليٌّ بالنسبة إلى نظامٍ

(*) نال هذا المصطلح شهرةً واستعمالاً واسعَيْن بعدما أطلقتُه في برنامج «الاتجاه المعاكس» على قناة «الجزيرة» (2 حزيران 2014) لشرح جوهر السياسة الداخلية التي اتَّبعها نظام حافظ الأسد لتثبيت ركائز نظامه، من خلال تمكين النخبة العَلَوية في مقابل تعويم حثالات بقية الطوائف.

يسعى إلى تكريس هيمنة طائفته على البلاد التي يحكمها بالحديد والنار اللذَيْن ليسا سوى حثالةِ المجتمع السوري المغلوبِ على أمره.

***

استبدلَ النظامُ الوزيرةَ المحجَّبةَ الـمُقالةَ بوزيرةٍ محجَّبةٍ أخرى، في مسرحيةٍ مبتذلةٍ لم تعدْ تُقنع حتَّى مؤيِّدي النظام أنفسهم.

ولن تجرؤ وزيرة الديكور الجديدة على تخطِّي حدود الدور المرسوم لها في ظلِّ التغييرات الشكلية الشاملة التي يقوم بها نظامٌ فاسدٌ... يُوزِّرُ من أجل «حضنٍ» في العتمة، ويُقيل من أجل «حضنٍ» في الضوء!

موقع «كلُّنا شركاء»، **24** آب **2015**

العميد عصام زهر الدين
ولعبة النظام

لم تكد الثورة السورية تلجأ إلى السلاح دفاعاً عن نفسها، حتى حصل الأمر الآتي: ضابطٌ شبه هامشيٍّ يجلس في الصفوف الخلفية للجيش السوري، تدفعهُ يدٌ خفيَّة ليصبح -بشاربَيْه المعقوفَيْن- في الصفِّ الأوَّل!

- من دمَّر بابا عمرو؟
- العميد عصام زهر الدين.
- من يدير معركة حلب الآن؟
- العميد عصام زهر الدين.
- من قصف درعا؟
- العميد عصام زهر الدين.
- من حرَّر المخطوفين في مدينة التل؟
- العميد عصام زهر الدين.

... حتى بات في وسعنا ملء أيِّ فراغٍ في أيِّ جملةٍ تتحدَّث عن

عملٍ عسكريٍّ انتهى بمجزرة باسم هذا الضابط السوبرمان!

فما حكاية هذا المجرم «الأسطوري» الذي خَرَقَ الإعلامُ الرسميُّ «تقاليده»، فاتصل به شخصياً أكثر من مرَّة لينفي خبر مقتله بالقول إنَّ روحه «تقمَّصتْ»؛ في تعبيرٍ غير بريء يريد القول للسوريين إنَّ من يقتلكم الآن هو «ضابطٌ درزيٌّ».

***

حين بدأتْ تتسرَّب -في الأشهر الأولى للثورة السورية- لوائح بأسماء الضبَّاط السوريين المجرمين الكبار (من رتبة «عميد» فما فوق)، كان لافتاً عدم وجود أيِّ اسمٍ لأيِّ ضابطٍ من السويداء. والأمر نفسه حصل مع لوائح عقوباتٍ «الاتحاد الأوروبيّ».

في تلك الأيام جرى الحوار الآتي بيني وبين أحد الأصدقاء حول هذه المسألة؛ أي غياب الضبَّاط الدروز الكبار عن تلك اللوائح:

- برأيك، هل حصل ذلك سهواً؟

- لا.

- هل تقصَّدوا، إذاً، تحييد ضبَّاط السويداء الكبار بهدف جذبهم إلى صفوف الثورة؟

- أيضاً لا.

- إذاً، ما هو سبب غياب أسماء ضبَّاط كبار من السويداء عن

اللوائح؟

- السبب هو أن لا وجود لهم أصلاً!

***

وللقارئ غير المطَّلع جيِّداً على تاريخ العلاقة بين أبناء الجبل والجيش السوري بعد سنة 1966، سأشرح باختصارٍ المفاصلَ الأساسية لتلك العلاقة، كي يفهمَ السرَّ الحقيقيَّ في عدم وجود أيٍّ ضابطٍ كبيرٍ من السويداء في موقع قيادي فعَّال في قيادات الجيش، ومن ثمَّ كي يفهم سرَّ الإعداد السريع للوجبة القاتلة الـمُسمَّاة «العميد عصام زهر الدين».

***

معارضة أهل السويداء لنظام حافظ الأسد خرجتْ من البوَّابة العسكرية أولاً. كيف؟

في العام 1966 نفَّذ حافظ الأسد وصلاح جديد أكبر حملة تسريحات في تاريخ الجيش السوري شملت حوالى 300 ضابط من جبل العرب من أرفع الرتب إلى أدناها، بينهم اللواء فهد الشاعر واللواء حمد عبيد، استكملاها بإعدام قائد «كتيبة المغاوير» سليم حاطوم (سنة 1967) الذي حاول الانقلاب ردَّاً على حملة التسريح سنة 1966.

كان الحضور العسكري لأبناء السويداء -منذ استقلال سوريا- يكاد لا يُضاهى في الجيش السوري (يوم قيام انقلاب الثامن من آذار سنة 1963 كان القائد العام للجيش والقوات المسلَّحة ووزير الدفاع من السويداء، وهو الفريق الركن عبد الكريم زهر الدين)، وقد حدث ذلك بما يشبه «التواطؤ» الوطنيّ بين السوريين عرفاناً منهم بالدور الكبير الذي اضطلع به أبناء الجبل في معركة تحرير سوريا من الاستعمار الفرنسيّ (وقبله الاستعمار التركيّ حيث كان ثوَّار الجبل بقيادة سلطان الأطرش أوَّل من دخل دمشق -قبل وصول الجيش العربيّ- ورفعوا العلم العربي على السرايا في ساحة المرجة).

لذلك كان هذا الحضور الفاعل أبرزَ عقبةٍ في طريق الثنائيّ الأسد - جديد لإحكام قبضتَيْهما على الجيش السوري، بعد نجاحهما في تصفية الحضورِ الجدِّيِّ للسُّنَّةِ فيه. وقد كان لعملية التسريح الواسعة، التي طالت أبناء الجبل في الجيش، نتيجة كارثية سريعة بسبب قيام حرب 1967 بعد أشهر قليلة، حيث أدَّى الفراغ -الذي تـمَّتْ تعبئته على أساس الولاءِ الطائفيِّ وليس الكفاءة- إلى أداءٍ سيءٍ للجيش نتجَ عنه خسارة هضبة الجولان.

والأمر ذاته قام به حافظ الأسد على المستوى السياسي، حيث

اعتقل منصور الأطرش وأخرج شبلي العيسمي من سوريا (وحتى في لبنان اغتال كمال جنبلاط)، إضافة إلى حصاره الأمنيّ والسياسيّ لسلطان الأطرش في قريته بعدما رفض هذا الأخير عروضَ الأسد بمنصبٍ سياسيٍّ له، يحوِّله من رمزٍ وطنيٍّ كبيرٍ إلى مـجرَّد موظف عنده.

بل إنَّ حافظ الأسد هذا -بسبب خشيته من الانتقام وخوفه من أن يلقى مصير الرئيسِ السوريِّ الأسبق أديب الشيشكلي الذي اغتاله أحد أبناء الجبل ثأراً لمجزرته التي ارتكبها في خمسينيات القرن الفائت في السويداء- لـمْ يَزُر الجبل إلَّا زيارة يتيمة في يوم 27 آذار 1982 لقراءة الفاتحة أمام جثمان سلطان الأطرش(*)، أو بالأحرى لقراءة الفاتحة على روحِ أيِّ أملٍ بانطلاق التمرُّد، ضدَّ نظامه، من السويداء.

(*) رفض حافظ الأسد تخصيص مانشيت الصحف الرسمية لخبر وفاة سلطان الأطرش كما تقتضي الحدود الدنيا من المهنية والأخلاق، كأن يُقال: «رحيل سلطان الأطرش» أو «رحيل القائد العام للثورة السورية الكبرى» أو أي شيء من هذا القبيل. فعلى سبيل المثال جاء مانشيت جريدة «البعث» يوم وفاة الأطرش كالآتي: «القائد الأسد يزور بيت الفقيد الأطرش بالقريَّا... الجماهير تستقبل الرئيس الأسد بالأهازيج والهتاف بحياته وحياة الحزب والثورة»!

هذا الخوف والتوجُّس الدائمان من انتقام أبناء الجبل لإقصائه لهم، والذي تـمَّ بطريقة خاطفة، جعلَ حافظ الأسد يقضي، بشكل شبه كامل، على أيِّ حضورٍ حقيقيٍّ للدروز في الجيش السوري، مكتفياً بانتقاء الانتهازيين منهم. أمَّا من لـمعَ نجمه، في ما بعد، في الجيش من ضبَّاط الجبل، فقد قام بقتله وإعلان خيانته (كما فعل مع العقيد الشهيد رفيق حلاوة في حرب تشرين 1973)، أو تسريحه بشكل مبكر (كما حصل مع ضبَّاط كثيرين بينهم العميد نايف العاقل بطل عملية تحرير مرصد جبل الشيخ).

وسرعان ما تحوَّلت السويداء إلى ما يشبه الثكنة العسكرية. بل إنَّ عموم السوريين كانوا يتداولون بأن فروع المخابرات الأكثر قذارة في سوريا موجودةٌ في ثلاث محافظات: حماة ودير الزور والسويداء.

وإذا كان مفهوماً ذلك بالنسبة إلى حماة التي ارتكب فيها النظام مجزرته الرهيبة، وإذا كان مفهوماً ذلك بالنسبة إلى دير الزور التي كانت متعاطفة مع خصم حافظ الأسد (صدَّام حسين)، فإنَّ تفسيراً آخر غير الذي قدَّمناه لا يمكنه أن يشرح سببَ التركيزِ الأمنيِّ على السويداء.

والحقيقة أنَّ هذا العداء بين النظام والجبل ظلَّ قائماً حتَّى مطلع الثمانينيات، حيث حصل حدثان كبيران غيَّرا بعض الشيء

من طبيعة هذه العلاقة المتشنِّجة. الحدث الأول هو وفاة سلطان الأطرش الذي لم يكن زعيماً للجبل فحسب، بل كان بوصلته السياسية أيضاً، فخلا الجوُّ لحافظ الأسد لفبركة زعاماتٍ وهميَّة لبعض الانتهازيين الذين بدأوا يُروِّجون له ولسياسته، مستغلِّين حصول الحدث الثاني، والذي أعني به أحداث حماة، والتي تحوَّلت إلى معركةٍ طائفيةٍ محضةٍ.

شيءٌ غير قليل في المزاج الشعبي تغيَّر في الجبل في تلك السنوات، حيث حصل بعض الانكفاء، وصولاً إلى ما يشبه العزلة التامَّة التي أدارها الأسد الأب ببراعةٍ بين الطوائف. وهذا الحال لم يكن يوماً حال الجبل الذي كانت لأبنائه مكانةٌ رمزيةٌ في الوجدان السوري بسبب طليعيَّتهم في الثورات السورية المتعاقبة.

مفصلٌ ثالثٌ غيَّرَ علاقة أهل الجبل ببقيَّة المكوِّنات في سوريا: «هبَّة السويداء» سنة 2000. إنَّها أوَّلُ انتفاضةٍ شعبيةٍ تقوم في عهد بشار الأسد بعد أيامٍ قليلةٍ من تسلُّمه مقاليد الحكم. وقد بدأتْ هذه الانتفاضة بسبب إشكالٍ حصل بين الدروز وبعض البدو الذين سلَّحهم محافظ السويداء بالتنسيق مع الأجهزة الأمنية، وهم تحديداً جماعة سعود السعيد الذي كان يجاهر بأنه لا يدخل دارَ بدويٍّ لا يُعلِّق السلاح في مضافته. وقد تطوَّرت هذه المشكلة لتصبح انتفاضةً

شاملة في الجبل ضدَّ النظام الذي تــمَّ طرده من مدينة السويداء، إلى أن أعاد الدخول بالدبَّابات، على جثث عشرات الشهداء والجرحى من المنتفضين السِّلْميين.

وكي نفهم كيف استثمر النظام تلك الانتفاضة لتحييد الجبل هذه الأيام، علينا أن نعود إلى ما فعلته ماكينتُه الإعلاميةُ في ذلك الوقت من العام 2000 على محورَيْن:

الأول، تحريض السوريين ضدَّ الانتفاضة باعتبارها «انتفاضة درزية» تستهدف «البدو - السُّنَّة».

والثاني، تحريض أبناء الجبل على الطائفة السُّنِّية على اعتبار أنَّ الضابط الذي قاد العمليات في السويداء هو «ضابط سُنِّي» من حوران، وأنَّ العسكري الذي نفَّذ مجزرة المشفى، التي راح ضحيتها العشرات من الشهداء والجرحى، هو «مجنَّدٌ سُنِّيٌّ» من حماة.

وفي الحقيقة إنَّ هذه المعلومة الأخيرة تُشكِّل مدخلاً نموذجياً لفهم الدور الذي يُؤدِّيه العميد المجرم عصام زهر الدين الذي أُولجَ -كما سرَّبتْ مصادرُ النظام- قيادة عملية اقتحام حيّ بابا عمرو ومعركة حلب وسوى ذلك من الجرائم.

الشريط القديم تــمَّ وضعه في مسجِّلةٍ جديدةٍ، والصوت الذي كان سنة 2000 خفيضاً ها هو يعود قوياً جهورياً: مجزرة بابا عمرو

قام بها «ضابطٌ درزيٌّ»!

يا للبراءة! السُّنَّة قتلوا الدروز عام 2000، وها هم الدروز يقتلون السُّنَّة اليوم!

ولكنْ حقّاً، من هو العميد عصام زهر الدين؟

***

إنَّه الابنُ العاقُّ لقرية «الصَّوَرة الكبيرة» (45 كم عن دمشق). كان قبل الأحداث مجرَّد قائد كتيبة، متذمِّر دائماً بسبب رفض قيادته منحه سيَّارة جديدة، وقَلِق -كأيٍّ ضابطٍ من أبناء السويداء- من فكرة تسريحه المبكر.

ومن قائد كتيبةٍ، تحوَّل عصام زهر الدين على الفور إلى قائد لواء. وليس أي لواء! لواء النخبة في «الحرس الجمهوري»! ومن المطالبة بسيَّارة جديدة إلى موكبٍ كاملٍ من سيَّارات الحراسة! وغابت أخبار «الفرقة الرابعة» عن الإعلامٍ لتحلَّ محلَّها أخبار «اللواء 105». وانتشى العميد الـمُلطَّخ بالدماء وهو يجد اسمَه منافساً لاسم «العميد ماهر الأسد» في أُبوَّة المجازر على أثير الفضائيات. لقد استُبدلَ عميدٌ غامض بعميدٍ غامض، وليس السبب هو الرغبة في استبدال ماركة القتل، بل الرغبة في استبدال ماركة القاتل.

وفي حين يخاطر الضبَّاط بحياتهم للقيام بانقلابٍ عسكريٍّ

يصلون به إلى قمَّة القيادة، لم يحتَجْ عصام زهر الدين إلى شيءٍ من هذا، لأنَّ اليد الخفيَّة، التي تحدَّثنا عنها، حملتْهُ من الصفوف الخلفية حَـمْلاً ووضعتْهُ على كرسي مجاور لكرسي الرئيس.

التقى بشار الأسد بالعميد عصام زهر الدين قبل معركة بابا عمرو بأيام، وقبل أن يُربِّتَ على كتفه الموعودة بالسيوف بدل النجوم، حدَّثه عن «الدولة الفاطمية»! وهو الحديث نفسه الذي كان قد أسمعه لوفد السويداء الذي زاره، كما تناقل الناس في الجبل!

وقد اعتمد نظام الأسد أسلوباً خبيثاً في تعويم اسم زهر الدين في الإعلام، وذلك عن طريق التسريبات المفخَّخة للفضائيات المعادية له. حيث يقوم أحد عملاء النظام الذين نجحوا في اختراق إعلام الثورة بتسريب خبر مقتل زهر الدين مع تضخيم موقعه في الجيش النظامي، بطريقةٍ ظاهرها الرغبة في تضخيم إنجاز «الجيش الحرّ» باغتياله، وباطنها تضخيم الفضيحة عند ظهور زهر الدين حيَّاً يُرزق وتحقيق الهدف الرئيسي من ذلك كلِّه: أن يُزرَع في رَوْع السوريين المنتفضين أن قاتلهم ضابط من السويداء، وأن حلف الأقلِّيات قائمٌ على قدم وساقٍ.

اليوم بات يكفي أنْ تكتب في مستطيل «غوغل» كلمة «العميد»

حتى يعطيك من بين الخيارات الأولى اسم عصام زهر الدين متبوعاً بكلمة «درزي». واليوم لا يحرص النظام على شيءٍ مثل حرصه على عدم إسالة الدماء في السويداء، وإظهارها مواليةً له والتعتيم على المظاهرات المتقطِّعة الجارية فيها، لكي تبقى في يده الورقة الأهمّ التي يساومُ العالـمَ عليها؛ ورقة حماية الأقلِّيات.

لقد مَسَخَ حافظ الأسد الحضورَ العسكريَّ لأبناء الجبل في الجيش السوريّ، حيث لم يسمح لكفاءاتهم بالوصول إلى أيٍّ موقعٍ مهمّ، إلى درجة أن الأسد الابن حين أراد أن يُبرز للإعلام اسمَ ضابطٍ درزيٍّ كبيرٍ، كمسؤولٍ عن القمع، لم يجدْ ما يُعتدُّ به، لذلك تـمَّ سَلْق هذا الاسم سَلْقاً في شخص العميد عصام زهر الدين الذي جاء على المقاس المطلوب.

ولذلك أجبتُ سائلي عن سبب غياب ضبَّاط السويداء الكبار عن تسريبات القيادات العسكرية الفاعلة في عمليات القمع، بأنهم غير موجودين.

***

هذه السنة، شهدَ الجيشُ السوريُّ أوسعَ مراسيم ترفيعاتٍ لضبَّاط من السويداء منذ العام 1966. فهل حدث ذلك بسبب عقدة ذنب يحسُّ بها النظام جرَّاء إقصائه لهم طوال نصف قرن؟ أم

أنَّ النظام اكتشف، فجأةً، كفاءةَ ضبَّاط الجبل؟ أم أنَّه أُعجب فعلاً بلمعة شواربهم المعقوفة؟

بالطبع لا. وبالطبع لن يستطيع أبناء الجبل خيانة تاريخهم، ولذلك فشلت الجولة التي قامت بها زوجة العميد عصام زهر الدين (بصفتها ماذا؟!) على بعض قرى السويداء لإقناعها بالتسلُّح.

لقد سبق أن كتبتُ بأنَّ لجبل العرب تعريفَيْن: أوَّل فرضته الجغرافيا (جبل خامد) وثانٍ فرضه التاريخ (جبل ثائر). ولا يمكن للجغرافيا أن تهزم التاريخ في المكان الذي ما زالت تتردَّد فيه صيحات سلطان الأطرش ورفاقه.

موقع «كلُّنا شركاء»، 17 تشرين الأول 2012

ضبَّاط الإغراء الطائفي

بعد أيامٍ قليلةٍ من نشر مقالتي الـمُعنونة «العميد عصام زهر الدين ولعبةُ النظام»، انتشر فيديو، مُفخَّخ طائفياً، لجنودٍ من «الحرس الجمهوري» يتقدَّمهم عصام زهر الدين وهو يُلقِّنهم بيتاً من شعرِ التراثِ الحربيِّ لمحافظة السويداء يقول: «وبشرعنا الموت سُنَّة» (أي أنَّ الشهادة هي نهجنا ومعتقدنا). والـمعنى لا صلة له بطائفة السُّنَّة لا من قريب ولا من بعيد.

ولكنْ بسبب جهل الكثير من السوريين باللهجة وباللكنة اللتَيْن قيل فيهما هذا البيت، وبسبب تجاوُر كلمة «الموت» مع كلمة «سُنَّة»، ولأنَّ من يغنِّي البيتَ ضابطٌ طائفيٌّ، فَهِمَ كثيرون بأنَّ المعنى المقصود هو «الموت للسُّنَّة»!

واللافت أنَّه من بين مئات الأبيات المأثورة من جوفيَّات الجبل وأهازيجه الحماسية، لم يخترْ العميد زهر الدين للتصوير والتسريب سوى هذا البيت الذي تردُ فيه كلمة «سُنَّة» مسبوقةً بكلمة «الموت»! ولا شكَّ في أنَّه مدركٌ تماماً لموقعه الطائفيَّ المرغوب فيه من قبل

النظام، والذي بسببه نال مكانته المستجدَّة بعدما كان ضابطاً هامشياً، مثلما هو مدركٌ تماماً لخطورة ما يقوم به، من اختيار البيت الـمُغنَّى، إلى القيام بتفخيخه بهذه الطريقة، التي تشبه طريقة مطربات الإغراء الهابط حيث يقمنَ بتفخيخ الكلام العادي ليصبح حـمَّالَ معانٍ جنسيةٍ، وهنَّ يحملنَ القطط بإيحاءاتٍ لا تخطئها عينٌ.

في جيش الأسد، ثـمَّة اليوم الكثير من ضبَّاطِ الإغراءِ الطائفيِّ الذين يحملون قططهم، ويقومون بعروض «اسْتربتيز» رديئة، عارضين مفاتنهم الطائفية أمام نظامهم الشَّبِق.

موقع «كلُّنا شركاء»، 30 تشرين الأول 2012

متحف الكاميرات الشهيدة

في سوريا شهداء لا تحفل بأسمائهم القوائمُ، ولا تحكي حكايتهم الفضائياتُ، ولا يُضمِّد جراحهم أحدٌ، لأنهم ماتوا ولم تسلْ دماؤهم.

اليوم استشهدتْ كاميرا. وكي لا يكون مصيرُها مصيرَ بقيَّة الجمادات الشهيدة، استعارتْ دماً من صاحبها الـمصوِّر والمخرج تامر العوَّام.

استشهد تامر العوام في حيِّ الإذاعة بحلب، واستشهدتْ كاميراه معه. ابن السويداء الذي رفضَ الاكتفاء بالجلوس خلف الشاشات، تَرَكَ بلاد الغربة القسرية (ألمانيا) وعاد إلى سوريا ملتحقاً بـ«الجيش الحرّ» كمصوِّرٍ ميدانيٍّ وكمخرجٍ يُعِدُّ أفلاماً وثائقيةً عن إجرام نظام الأسد.

وكان آخر ما كتبه مزيجاً من الألم والمرارة: «بين القذيفة والقذيفة تسألني المصوِّرة النمساوية عن سبب القصف من مسافاتٍ بعيدةٍ على المدينة؟ ألـمْ تتدرَّبوا في الجيش السوري على آليَّة حرب

الشوارع كونكم في حالةِ حربٍ مع إسرائيل؟! تسقط قذيفةٌ جديدةٌ وتقتل الإجابة».

سقطت القذيفة، ولم تقتل الإجابةَ فقط، بل قتلتْ صاحبَها أيضاً.

آه يا أخي تامر! كم تشبه المرارة التي ملأتْ فمكَ تلك المرارة التي ملأتْ أفواهنا. كم أفهم ذهابك إلى الموت بقدميك كصرخة ألم من أعماق جبل العرب. كم أفهم موتكَ كبرقيَّةِ اعتذارٍ مستعجلةٍ من أهل السويداء إلى إخوانهم في بقية المناطق السورية.

دمكَ يا تامر العوَّام هو اعتذارٌ... اعتذارٌ مُرٌّ لا بدَّ أن يفهمه السوريون كذلك. دمك ودماء معين رضوان وصفوان شقير وحسام حرب وكل دماء شهداء الثورة في السويداء.

***

بعد انتصار الثورة السورية، لي أمنيةٌ بصنع متحفٍ خاصٍّ بكاميراتِ المصوِّرين الشهداء. متحف يحمل اسمَ «متحف الكاميرات الشهيدة»... لكي تظلَّ أعينُها المفقوءةُ تحدِّق إلى الأبد -كدليلِ إدانةٍ- في وجه هذا العالم الأعمى.

موقع «كلُّنا شركاء»، **10** أيلول **2012**

حكاية حارس المرمى الذي تحول إلى قلب هجوم

حكاية عبد الباسط الساروت هي حكاية الثورة السورية نفسها. كان الساروت سِلْمياً حين كانت الثورة سِلْميةً، وحمل السلاح حين حملت الثورةُ السلاحَ، وشعر بالخذلان حين شعرت الثورة بالخذلان.

ليس الساروت خارج النقد. هو في نهاية الأمر شابٌّ عاديٌّ من أصول بدوية، لم يقرأ الكثير من الكتب ليفهم نقدَ الذين يُنظِّرون عليه وهم مُستلقون على الكنبات.

سيرة الساروت كسيرة هذه الثورة التي افتقدت المثقَّفين في بلدٍ يُوصف بأنه بلد المثقَّفين.

رُجِمَ الساروت حين اضطرَّ للخروج من حمص، ورُجِمَ حين أراد العودة إلى حمص (من الباب الذي لم يعد يستطيع أن يرى باباً سواه).

قطعاً، لا أُبرِّر للساروت انضمامه لتنظيماتٍ متطرِّفةٍ ولا أدافع

عنه. بل أدافع عن هذه الثورة المطعونة من خاصرتَيْها وصدرها وعنقها.

الدموعُ في عينَي الساروت منعته من الرؤية أكثر. لذلك تلمَّسَ طريقَهُ بوحي عاطفته.

شَعَرَ الساروت بالبرد؛ ذلك البرد الذي لا يمكن للمازوت طرده من الروح: برد الأمل.

لم يجد الساروت أمامه سوى حضن الذلِّ الصقيعيِّ الـمُسمَّى زوراً «حضن الوطن». رفضه، واختار «حضناً» آخر أكثر صقيعية. في الشكل هو حضن التطرُّف، لكنْ في المضمون هو حضن الأفق المسدود بنذالةِ هذا العالم.

ماذا على حارس الـمرمى أن يفعل، وقد ملأت الكراتُ شباكَه؟ ماذا على حارس الـمرمى أن يفعل، وقد قُتِلَ معظم أعضاء الفريق؟

ترك الساروت مرماه ليلعب قلب هجوم.

سيبدو ذلك جنوناً لمن لم يلعب يوماً كحارس مرمى. سيبدو ذلك انتحاراً لمن لم يفهم معنى أن تكون الخسارةُ هزيمةً نهائيةً.

الجمهور على المدرَّجات اهتاج. لكنَّ التاريخ يركض في أرض الملعب.

لقد صرخنا من قبل، وقلنا: لا تدعوا السوريين يفتحون الأفقَ المسدودَ بعمليةٍ انتحاريةٍ.

لم يستمع أحدٌ لصراخنا. وها هم السوريون يلبسون الأحزمة الناسفة استعداداً لفتح الأفق المسدود بالقوَّة.

موقع «كلُّنا شركاء»، **30** كانون الأول **2014**

مات الشاعر... وعاشت حمدة

مناسبة رحيل الشاعرِ السوريِّ الشعبيِّ الشهير عمر الفرَّا، تضعنا -نحن الذين شكَّلتْ قصائد الفرَّا جزءاً جميلاً من ذاكرتنا الشعبية- في ما يشبه المأزق. فكُثُرٌ من الذين صنعوا ثقافتنا (الشعبية والنخبوية على السواء) يقفون اليوم في صفِّ الدكتاتور القاتل: من دريد لـحَّام الذي ما زال دوره في مسرحية «كاسك يا وطن» قادراً على إسالة دموعنا، إلى أدونيس الذي كان لكتاباته أثرٌ واضحٌ على الحركة الثقافية العربية امتدَّ لعقدَيْن من الزمن، إلى كُثُرٍ غيرهما... وربَّـما لو لم «يسعف» الموتُ بعضَ الشعراء والمثقَّفين والفنَّانين البارزين قبل بداية الثورة لكانت أسماؤهم الآن مُدرجةً في سطور هذه المقالة.

والحقّ أنَّ هؤلاء وضعونا أمام خيارَيْن لا ثالث لهما: فإمَّا أنْ نُبرِّرَ لهم سقطتهم الكبيرة تلك ونمنحهم أسباباً تخفيفيَّة كي نحتفظ بالأثر الطيِّب الذي صار جزءاً من ذاكرتنا، وإمَّا أن نُسقطهم، هم وأعمالهم، من ذاكرتنا معتبرين تلك الأعمال خدعةً ثقافيةً تأخَّر

افتضاحُ أمرها في مختبر الواقع.

إنَّ هذا الإحراج الذي وضعَنا فيه هؤلاء، ووضعوا أنفسهم فيه، يتلخَّص في أنَّهم دعونا في أعمالهم إلى قيمِ الحرِّية، وحين هبَّتْ رياحُ تلك القيم وقفوا ضدَّها.

لقد دعونا في العلن إلى شيءٍ هم يخافونه في سرِّهم.

والمشكلة أنَّهم راحوا يُبرِّرون تناقضَهم هذا بمحاولة تجريمنا نحنُ، عبر القول بأنَّنا معادون لجوهر الحرِّية الحقَّة، وحرِّيتنا غير الحرِّية التي ينشدونها... إلى آخر هذا الكلامِ الالتفافيِّ الـمُخيِّب.

إنَّ شاعراً ومثقَّفاً مثل أدونيس تنكَّر لأبَسط قواعد المنطق وراح يتبنَّى خطاباً مبتذلاً ضدَّ الثورة السورية لا يختلف في شيء عن خطاب وسائل إعلام النظام، إلا بشكل الصياغة وانتقاء المفردات.

الإحراج الذي وقع بيننا وبين ذاكرتنا لم يعد بالإمكان تجاهله.

على المستوى الشخصي، حاولتُ في مطلع الثورة إيجاد مَـخْرَج ما لدريد لـحَّام الذي لم أستطعْ إسقاط أعماله من ذاكرتي، فقلتُ بأنَّه: ممثِّلٌ كبيرٌ وإنسانٌ صغيرٌ.

ولكنْ كيف يكون كبيراً في الفنِّ مَنْ هو صغيرٌ في الموقفِ الأخلاقيِّ؟!

هذا سؤالٌ يستحقُّ البحث لأنه سؤال الثقافة العربية اليوم في

خضمِّ التحوُّلات الكبرى، حيث ظَهَرَ الفصام المخيف الذي تعيشه ثقافتنا بين الكتابة والواقع.

لقد كَتَبَ عمر الفرَّا قصيدته الشعبية الأشهر عن الفتاة «حَـمْدة» التي دفعتْ حياتها ثمناً لحرِّيتها، بينما فَعَلَ، هوَ، العكس في حياته.

وهكذا مات الشاعر على الجهة النقيضة للجهةِ التي أماتَ عليها بطلةَ القصيدة.

موقع «كلّنا شركاء»، **22** حزيران **2015**

انتخابات مجلس الشعب
أو الحفلة التنكُّرية

لا تشبه انتخابات مجلس الشعب، اليومَ، شيئاً مثلما تشبه الحفلات التنكُّرية.

فأحزاب «الجبهة» غيَّرت اسمَ قائمتها إلى «قائمة الوحدة الوطنية». و«حزب البعث» فرَّخَ أحزاباً وهميةً لإيصال بعض أعضائه من خلالها. والفاسدون المتملِّقون أنفسهم سيعودون إلى المجلس، لكنْ عوض أن يركبوا الباصَ بشكلٍ جماعيٍّ مكشوفٍ، سيركب كلٌّ منهم سيَّارةً خاصةً تُقلُّه إلى المجلس، وربَّـما سيركبون «السوزوكي» التي قال التلفزيون السوري إنَّها قصفت البنك المركزي في دمشق.

حفلةٌ تنكُّريةٌ رديئةٌ هي هذه «الانتخابات»، ستخرج بعدها جريدة «الثورة» لتقول بأنَّنا نعيش «عرس الديموقراطية»، وستحكي لنا جريدة «تشرين» عن مزايا الستار العازل الذي انتخب المواطن خلفه، أما قناة «الدنيا» فقد أعدَّت العدَّة لتقارن بين الديموقراطية في

سوريا والديموقراطية في قطر.

وبالطبع لن تحدث تفجيرات عند مراكز الاقتراع، ليس لأنَّ الإرهابيين مشغولون بانتخاب مرشَّحيهم، وليس لأنَّ التفجيرات ماركةٌ مسجَّلةٌ تخصُّ شوارع المتظاهرين ومنازلهم، بل خوفاً من أن تُسقِطَ هذه التفجيراتُ بعضَ الأقنعةِ عن وجوه بعض أبطال هذه الحفلة التنكُّرية.

موقع «كلُّنا شركاء»، **2** أيّار **2012**

«اتحاد النعامات العرب»

ثلاثةُ كتَّابٍ سوريين، على الأقلِّ، قام نظامُ الأسد البربريّ بتصفيتهم بعد اعتقالهم وتعذيبهم: الكاتب محمد نمر مدني (مواليد 1961)، الكاتب إبراهيم الخريط (مواليد 1943)، الكاتب محمد رشيد الرويلي (مواليد 1947). الأخير هو رئيس سابق لفرع «اتحاد الكتَّاب العرب» في مدينة دير الزور. وإنَّنا إذ نشير إلى هذه المعلومة، فمن أجل القول إنَّ هذا «الاتحاد» بعدما صمتَ عن قتل أبناء شعبه، ها هو اليوم يصمت أيضاً عن قتل بعض أعضائه!

وحقيقةً لا نعرف ما هي الحادثة الكبرى التي يمكن أن تُـحرِّك الضميرَ المتكلِّسَ لهذا «الاتحاد» وقيادته؟! لا نعرف ما هي الجريمة الاستثنائية التي ينتظرها «اتحاد النعامات» هذا ليسحب رأسه من رمل العار الذي غمسه فيه؟! ما هو الخَطْب الجَلَل الذي سيُخرج ضمائر قيادته من سباتها الأبدي بعد 50 ألف شهيد على امتداد الأرض السورية، وبعدما وصل المسدَّس إلى رؤوس بعض أعضاء «الاتحاد»؟

الداخل إلى الموقع الالكتروني الرسمي لـ«الاتحاد» لن يجد أيَّ خبرٍ عن استشهاد أيٍّ عضوٍ من أعضائه، بل على العكس من ذلك، سيجِد تعميماً تـحذيرياً للأعضاء «الذين لم يُسدِّدوا الذمم المالية المترتِّبة عليهم»! (هل هذا التعميم يشمل الكتَّاب الشهداء أيضاً؟ وماذا عن الذمم الأخلاقية التي سيكون أصحاب التعميم مطالبين بتسديدها في الغد؟).

من يُطالع البيانات الثلاثة التي أصدرها «الاتحاد»، حتَّى الآن، بخصوص الثورة، سيصدمه كمُّ العار الموجود في تلك البيانات، وسيسأل نفسه: هل الكاتبُ ضمير المجتمع أم ضمير الحاكم؟!

والمثير للسخرية، أكثر فأكثر، أنَّ المجلَّة الأشهر التي يُصدرها «اتحاد النعامات» هذا، تحمل اسم «الموقف الأدبي» (في عدد تشرين الأول 2012 وَصَفَ رئيسُ تحريرها الثورةَ السوريةَ بأنها «حالة من العمى»).

والسؤال: كيف يحقُّ لمن لا يملك موقفاً إنسانياً، أن يتحدَّث عن موقفٍ أدبيٍّ؟!

حاشا الأدبَ، وحاشا الأدباءَ.

مجلَّة «الغاوون»، عدد 1 كانون الأول 2012

صورة الأسد

تناقلتْ بعضُ المواقع الإخبارية السورية خبراً «طريفاً» يتحدَّث عن استعمال باعة الأفلام الإباحية في شارع الثورة بدمشق صوراً لبشار الأسد من أجل إخفاء بضاعتهم.

وبرأيي، إنَّ في مثل هذا الخبر أفضلَ ردٍّ على الضجَّة التي افتعلها الموالون بسبب حذف صورة حافظ الأسد عن الورقة النقدية من فئة الألف ليرة سوريَّة.

فقد كانت صورتا الأسدَيْن، الأب والابن، أفضلَ واجهةٍ لترويج الدعارة بجميع أشكالها: من الدعارة السياسية، إلى الدعارة العسكرية، إلى الدعارة الثقافية... وصولاً إلى الدعارة بمعناها الجنسي البحت (كيف ننسى، مثلاً، تحويل ساحة الشهداء في الـمَرْجة بدمشق إلى أشهر مكان لبيع الخدمات الجنسية في سوريا؟).

طوال خمسين عاماً، استعمل نظامُ الأسد الحيلةَ ذاتها التي يستعملها تـجَّار الأفلام الإباحية بشارع الثورة، حيث روَّج للدعارة -بأنواعها كافَّة- من وراء ستار الصور والشعارات.

فوراء شعار الوحدة أُخفيَ مشروعُ تفتيت البلد.

ووراء شعار العلمانية أُخفيَ مشروعُ الحكم الطائفيّ.

ووراء شعار الصمود والتصدِّي أُخفيَ مشروعُ الأمن الاستراتيجي لإسرائيل...

ومثلما أخفى بائعُ الأفلام الإباحية بضاعتَه خلف صورة رئيس البلاد، أخفى هذا الرئيسُ مشاريعَه الخطيرةَ خلف شعاراتٍ وطنيةٍ برَّاقةٍ.

كلُّ مشروعٍ صُنِعَ له ستارُه الخاصُّ لإخفائه، وكلُّ دعارةٍ صُنعتْ لها الصورة المناسبة التي تُخفيها.

والمصيبة هنا لا تُـختزَل بالنتائج الكارثية فحسب، بل أيضاً بحرمان الناس من حقِّ الاستفهام، ناهيك عن حقِّ الاحتجاج.

فهذه الصور - الواجهات تـمَّ مسحها بزيت القداسة، حتَّى صار أيُّ استفهامٍ حولها هو بـمثابة كفر أو خيانة. وطبعاً، ذلك كلُّه كي تستمرَّ الدعارات المتعدِّدة في عملها بدون أيِّ إزعاج.

إنَّ صور الأسد التي تُخفي خلفها بضاعةَ الدعارة في شارع الثورة بدمشق، هي أفضل تمثيلٍ لواقعٍ استمرَّ خمسين عاماً في سوريا. ولو طُلِبَ من أوسع الكتَّاب المعارضين مخيِّلةً أنْ يُصوِّر عهد الأسدَيْن في مشهدٍ واحدٍ لـما استطاع أن يأتيَ بمشهدٍ أفضل من هذا المشهد.

صورةُ بشار الأسد تُستعمَل لإخفاء صور الدعارة وأفلامها؟ ما هو الجديد في الأمر!

موقع «كلُّنا شركاء»، 6 تـمُّوز 2015

نرجسية نصراللّه
جزء من المحنة السورية

كي يصنع لنفسه هالةً حديديةً تمنع أيَّـاً كان من انتقاده، اخترعَ حسن نصرالله، وفريقه السياسيّ، اللعبة الآتية:

حين يتكلَّم نصرالله في السياسة وعن السياسيين، فهو زعيمٌ سياسيٌّ يحقُّ له الاستفادة من كلِّ الإمكانات التي تتيحها له السياسة، من مناورةٍ وتلفيقِ اتهاماتٍ ومهاجمةِ خصومٍ. ولكنْ حين يتكلَّم الآخرون عن نصرالله، فهو زعيمٌ دينيٌّ لا يمكنُ المساس به!

بهذه الخفَّة، المدعومة بقوَّة السلاح، بدَّلَ نصرالله أزياءَه، فحين يكون في موضع استهدافٍ يضع عمامته على رأسه، وحين يكون هو من يريد استهدافَ أحدٍ يخلع تلك العمامة.

بعد إعلان «حزب الله» «النصرَ الإلهيَّ» في حرب تـمُّوز سنة 2006، كنَّا في حقيقة الأمر أمام مجموعةٍ من الـمَشاهد تتعلَّق بتضخُّم الذات الذي أصاب نصرالله، لو جمعناها سويَّةً لفهمنا كيف أنه يمكن لنرجسيةِ شخصٍ واحدٍ أنْ تكون جزءاً مهمَّاً من أزمةٍ سياسيةٍ

كبرى تعصف ببلدٍ مثل لبنان. ومن تلك الـمَشاهد سأختار ثلاثةً:

الأوَّل، ظهر نصرالله بعد «النصر الإلهيّ» في حوارٍ تلفزيونيٍّ لابساً عباءةً ذهبيةً هي عباءة النصر. ولم يـمضِ، على تلك الإطلالة، بعض الوقت حتَّى بثَّ تلفزيون «المنار» مقابلةً مع إحدى السيِّدات تقول فيها إنَّ حلمها هو الحصول على تلك العباءة. والمفاجأة أنَّ نصرالله أرسل إليها فعلاً تلك العباءة، ولكنْ ليس في السرِّ، بل مع طاقم تلفزيوني لتصوير القصَّة في إطارٍ دراميٍّ فاجأَ كثيرين ممن تهدَّمت بيوتهم في الحرب، وجعلهم يتساءلون عن معنى مثل تلك الانشغالات الشخصية لنصرالله في خضمِّ الكارثة الإنسانية التي خلَّفتها الحرب!

الثاني، تكرَّر -بشكل مُـمنهج- على تلفزيون «المنار» المشهد الآتي: يُسأَل المواطنُ الجنوبيُّ عن بيته المدمَّر جرَّاء القصف فيجيب: «فدا صرماية السيِّد»! (المعنى: إنَّ بيتي المدمَّر هو فداء لحذاء نصرالله). لم يقلْ هذا المواطن: إنَّ بيتي المدمَّر هو فداء للوطن أو فداء للكرامة أو حتَّى فداء للإسلام. بل قال: هو فداء لحذاء فلان! والحقيقة أنَّ كثرة تكرار العبارة المذكورة بـحَرْفيَّتها جعلتْ مؤيِّدي «حزب الله» يفهمونها على أنَّها شيفرا حزبية يجب الالتزام بها عند الظهور في وسائل الإعلام.

الثالث، رفع «حزب الله» صورةً عملاقةً لنصرالله على طريق المطار تكاد تكون غير مسبوقة في ضخامتها بتاريخ لبنان. وقد علَّق عليها آنذاك وليد جنبلاط -المعروف بقدرته الكبيرة على الاستفزاز- بجملةٍ «خبيثةٍ» أزعمُ أنها آذتْ نصرالله كثيراً، حيث قال له: «صورتكَ عملاقة يا سيِّد إلى درجة أن الشعب يبدو أمامها صغيراً».

لقد وضع جنبلاط يده على «مخزن سرّي للصواريخ» في أعماق حسن نصرالله، لذلك شعر نصرالله بالغضب والإهانة، فشنَّ إعلامُه هجوماً عنيفاً ضدَّ جنبلاط.

المعادلة البسيطة: أعدائي يؤمنون بي

قبل أيامٍ، ظهر نصرالله في خطاب منقول عبر شاشة عملاقة قال فيه إنَّه من «كرم الأخلاق» قبوله بالجلوس إلى طاولة الحوار مع من سمَّاهم بـ«العملاء».

هذا الصَّلَف الذي يبدو أشبه بالموسيقى التصويرية المرافقة، بشكل دائم، لكلِّ خطابات نصرالله، ليس وليد حرب تـمُّوز، بل سابق عليه بكثيرٍ. فالجميع يذكر خطاباته عن قطع الأيدي وقطع الأرجل وقطع الأعناق التي كان يُهدِّد بها خصومه من اللبنانيين،

والجميع يذكر عبارته الشهيرة «أشرف الناس» التي يُقسِّم فيها اللبنانيين إلى شرفاء وعملاء.

لكنَّ هذا الصَّلَف بات بعد حرب تـمُّوز يدور أكثر فأكثر حول شخصه هو، وصورته هو، والتي لا يمكن لأحدٍ المساس بها. لذلك نجده يتباهى دائماً باستطلاع إسرائيليٍّ -لا نعرف مدى جدِّيَّته- يقول بأنَّ الإسرائيليين يصدِّقونه أكثر مما يصدِّقون قادتهم.

«النبيُّ» الذي في داخل نصرالله داخَ بالرائحة السحرية لهذه النتيجة غير المتوقَّعة والتي تقول بأنَّ الإسرائيليين أيضاً يؤمنون بنبوَّته وهالته القدسية.

والمعادلة صارت بسيطةً جداً في ذهن نصرالله: أعدائي يُؤمنون بي، فكيف لا تؤمنون بي أيها اللبنانيون؟!

لقد تجرأ برنامجٌ تلفزيونيٌّ ساخرٌ ذات يوم من أيام سنة 2007 (على قناة «إل. بي. سي») على صنع اسكتش ضاحك عن نصرالله يظهر فيه أحد الممثِّلين وهو يُقلِّده. ولم يكدْ ينتهي عرض الاسكتش حتى اشتعل لبنان وقُطعت فيه الطرقات وأُحرقت الدواليب. في ذلك اليوم أدرك اللبنانيون بأن نصرالله بات يضع نفسه في منزلة الأنبياء الذين يُحرَّم تمثيل شخصياتهم أو توجيه النقد إليهم.

من هذا المنظار فقط، سنفهم معنى التهديدات التي يُطلقها أبواقُ

الإعلام «المقاوم» ضدَّ كلِّ من ينتقد نصرالله أو يـمسُّ صورتَه.

لقد سكتَ أحد هؤلاء على إهانة نظيره له في أحد البرامج، لكنَّه لم يستطعْ أن يسكت حين تـمَّ المسُّ بنصرالله.

وبعده قام آخر، وعلى الهواء مباشرةً، بتهديد معارض سوري بالقتل لأنه سخر من نصرالله. وقبل ذلك كان قد أرسل إليَّ رسالةَ تهديدٍ مماثلة لأني مسستُ بصورة نصرالله التي سمَّاها بـ«المقدَّسة».

هؤلاء «الإعلاميون» لا يجتهدون من تلقاء أنفسهم، بل هم يتكئون على تلك النرجسية المندلعة في نفس نصرالله. هم يداعبونها أملاً بمكاسبَ شخصيةٍ أكبر، من مالٍ وظهورٍ إعلاميٍّ، وأحياناً طمعاً بدورٍ سياسيٍّ.

إنَّ فكرة «كَرَم الأخلاق» التي تحدَّث عنها نصرالله في خطابه الأخير هي في حقيقة الأمر عبارةٌ «مسروقةٌ» من الأحاديث الإعلامية التي تُجريها تلك الشلَّة من الإعلاميين الطبَّالين، فهؤلاء دأبوا على القول إنَّ قبول نصرالله الجلوس مع هؤلاء «العملاء» هو نوع من التنازل وكَرَم الأخلاق.

كثيراً ما استعار نصرالله عباراتٍ معيَّنةً من مادحيه لاستعمالها على طريقته. وعلينا الاعتراف هنا بأن هذا الرجل يملك قدرةً استثنائيةً على تسويق شخصيته. حتَّى نرجسيته الواضحة نجح في

تسويقها لدى جمهوره على أنَّها نوعٌ من التواضع. وهو في ذلك تلميذٌ نجيبٌ للدكتاتور الراحل حافظ الأسد الذي كان يُسوِّق لنفسه بأنه شخصٌ متواضعٌ لمجرَّد أنَّه لا يضع رِجْلاً على رِجْلٍ، في حين أنَّ الثلاثة آلاف تمثال، له ولأبنائه، والتي ملأت ساحات سوريا وشوارعها، لا تُشكِّلُ في نظره أيَّ دليلٍ على مرض تورُّم الذات الذي أصابه!

أحد السياسيين الطبَّالين المفضَّلين لدى نصرالله اعتاد على مداعبة تلك النرجسية عبر القول إنَّ «السيِّد قلبه رقيق» وإنَّه «عاطفيٌّ»، لذلك هو «يعفو» عن خصومه بينما هو في وسعه القضاء عليهم خلال ساعات.

النقطة الوحيدة التي يتمّ فيها «انتقاد» نصرالله من قبل طبَّاليه هؤلاء هي نقطة «رقَّة قلبه» و«تسامحه» و«تواضعه» مع خصومه، وبالطبع في ذلك إذكاءٌ -لا يخفى- لنارِ تلك النرجسية.

بات الإعلاميُّ الذي يودُّ صعود نجمه بسرعةٍ، أو زيادة عدد ساعات استضافته على قنوات «المقاومة»، يعرف بشكلٍ غريزيٍّ بأن مديح شخص نصرالله هو أقصر الطرق للوصول إلى هدفه، وهو المفتاحُ السحريُّ لكلِّ أبواب الشهرة والمال.

مع مرور الوقت تحوَّلت نرجسية حسن نصرالله إلى جزء من

الأزمة السياسية العامَّة في لبنان. فهذا الرجل الذي بات يَعتبر مجرَّد قبوله بالجلوس إلى طاولة الحوار مع خصومه السياسيين نوعاً من «الـمَكْرمة»، في إهانةٍ صريحةٍ لهم، سدَّ الباب في وجه أيِّ تسويةٍ ممكنةٍ في لبنان. وصارت نرجسيته مشكلةً سياسيةً مُضافةً، تماماً كمشكلة السلاح غير الشرعيِّ، ومشكلة ترسيم الحدود، ومشكلة قانون الانتخابات.

نرجسية نصرالله «الدولية»

بعد اندلاع الثورة الشعبية في سوريا، فاضتْ هذه النرجسية متجاوزةً حدود لبنان إلى سوريا.

لـمْ يكتفِ نصرالله بتحدِّي مشاعر السوريين الثائرين عبر إعلانه، جهاراً، الوقوف في صفِّ قاتلهم، بل إنَّه أرسل رجاله لاعتقال ناشطين سوريين فرّوا إلى لبنان وتسليمهم لنظام الأسد.

آنذاك قامتْ ممثِّلةٌ سوريةٌ معارِضةٌ بحركةٍ جريئةٍ (نظراً إلى أنَّ شعبية حسن نصرالله في سوريا كانت ما تزال قويةً في ذلك الوقت، وكان السوريون يأملون منه أن يُغيِّر موقفه، هو والشيخ محمد سعيد رمضان البوطي)، فنشرتْ على صفحتها الشخصية رسالةً تُطالب فيها نصرالله بإعادة التبرُّعات التي كانت قد أرسلتْها إلى جمهوره

في حرب تـمُّوز 2006. وما زاد الطلب استفزازاً أنَّ من بين تلك التبرُّعات الكثير من الأحذية كما ذكرت الرسالة.

وبعد انتشار مضمون الرسالة على مستوىً إعلاميٍّ واسعٍ، سرَّبتْ مواقعُ مقرَّبةٌ جدَّاً من «حزب الله» أنَّ نصرالله طلب بنفسه من معاونيه الاتصال بـ«أوساط الفنانة» لإعادة أموال التبرُّعات إليها. وبالطبع، كان في وسع «حزب الله» أن يقول بأنَّه هو الذي تدخَّل في المسألة من دون أن يقحم اسم «السيِّد» في مسألةٍ كهذه، ولكنْ هيهات أن يحصل ذلك، ما دامت تلك الفنَّانة قد وضعت يدها، مرَّةً ثانيةً، على «مخزن الصواريخ السرِّيِّ» في أعماق نصرالله والذي سبق لجنبلاط -كما أسلفنا- أن وضع يده عليه.

بتاريخ 22 أيَّار الفائت اختطفتْ مجموعةٌ مسلَّحةٌ سوريةٌ، أطلقتْ على نفسها اسم «ثوَّار سوريا - ريف حلب»، 11 لبنانياً على الحدود السورية التركية. وكان الشرط الأول الذي وضعه الخاطفون لإطلاق سراح اللبنانيين المختطفين هو اعتذار علنيٌّ يُقدِّمه حسن نصرالله من السوريين بسبب وقوفه ضدَّ ثورتهم.

وللمرَّة الثالثة، يتمّ امتحان نرجسية حسن نصرالله.

فقد عرف الخاطفون، الذين لا يريدون إطلاق سراح اللبنانيين بسهولةٍ، بأنَّهم يطلبون الـمستحيل: اعتذار حسن نصرالله. وقد

صدقَ حدسُهم فعلاً. نصرالله لا يمكنه أن يعتذر. فإزهاق أرواح أحد عشر لبنانياً أسهل عليه ألف مرَّة من إحداث خدشٍ صغيرٍ في مرآة ذاته النرجسية. عصمة الأئمَّة الإثني عشر في الفقهِ الشيعيِّ مستمرَّةٌ في شخص «السيِّد» المعصوم الذي لا يمكن أن يخطئ، وبالتالي لا يمكن أن يعتذر.

اليوم يُرسل نصرالله رجاله إلى الموت في سوريا، ثم يُسبغ على مقتلهم صفة «الشهادة». وهو في هذا التصرُّف يُذكِّر اللبنانيين بـ«شهيدٍ» لبنانيٍّ قُتِلَ، في الحرب الأهلية اللبنانية، أثناء محاولته السطو على أحد مـحلَّات الذهب في شارع الحمراء ببيروت، لكنَّ أهله بدل أنْ يخجلوا بما حدث، قاموا بطبع أوراق نعوةٍ سمّوا فيها ابنَهم اللصَّ بـ«الشهيد»!

على مدى الأشهر الماضية من عمر الثورة السورية، دأبَ نصرالله على استفزاز مشاعر السوريين، حتَّى أنَّه لم يكفّ عن استخدام التعبير الأشدّ استفزازاً: «سوريا الأسد». بل إنَّه، وضمن الخطبة الواحدة، لم يحاولْ تلافي التناقض الفاقع في موقفه بخصوص ما يجري في سوريا والبحرين. فما إنْ ينتهي من وصف الثورة السورية بـ«المؤامرة» حتَّى ينتقل، مباشرةً، للحديث عن الثورة البحرينية والإشادة بها!

طائفية نصرالله هي نوعٌ من الوطنية، ونرجسية نصرالله هي نوعٌ من التواضع، وأُلوهية نصرالله هي نوعٌ من التعبُّد لله.

لـمْ يعد في وسع نصرالله قراءة مقالة نقدية كهذه المقالة، بعدما سمع مَنْ يقول على تلفزيون «المنار» بأن «السيِّد» هو الوحيد الذي يُغيِّر المعادلة الدولية بخطاباته.

«سماحة السيِّد» أنتَ إلهٌ، والآلهةُ مكانها السماء لا الأرض. فلتتركْ لنا هذه الأرض الضيِّقة ما دامت لم تعد تتَّسع لك. السماء بانتظاركَ... لا تتأخَّرْ عليها.

موقع «كلُّنا شركاء»، **29** تشرين الثاني **2012**

زلَّة لسان المسؤول الإيراني

تصريحُ مستشار المرشد الأعلى للشؤون الدولية علي أكبر ولايتي عن أنَّه يريد للحوثيين أنْ يلعبوا في اليمن دوراً مماثلاً للدور الذي يلعبه «حزب الله» في لبنان، ينطوي على زلَّةِ لسانٍ خطيرةٍ تفضح تعريف إيران لدورِ «حزب الله» الحقيقيِّ. فاليمن ليس لديه أيّ حدود مع إسرائيل، وبالتالي يجب ألَّا يكون لمن هو مثل «حزب الله» أيُّ دورٍ فيه، لجهة أنه حزبٌ متخصِّص في مقاومة إسرائيل.

تقريباً، المسؤولُ الإيرانيُّ الرفيعُ أجاب بـ«لا» عن سؤال: أليسَ شرطاً لنشوء «حزب الله» أنْ يكون هناك إسرائيل؟

وبالطبع، هذا الجواب طبيعيٌّ لأنَّ الدورَ الحقيقيَّ لـ«حزب الله» لا علاقة له بمقاومة الاحتلالِ الإسرائيليِّ، بقدر سعيه إلى خلق قواعد متقدِّمة للمشروع الإيراني.

والحقّ أنَّ ما تقوله زلَّة اللسان الإيرانية هو ما ترفض قوله الدعاية الرسمية لـ«حزب الله». فالماكينة الإعلامية لهذا الحزب واظبتْ على القول بأنَّ علَّة وجوده كحزبٍ مسلَّحٍ تتلخَّص في

مقاومة إسرائيل. فلذلك كان يمكننا أن نتفهَّم ما قاله المسؤولُ الإيرانيُّ لو أنَّه طلبَ مثلاً من أحد الأحزاب في سوريا أو الأردن أو لبنان أو مصر (دول الطَّوْق) أنْ تلعب دوراً مماثلاً لـ«حزب الله». أمَّا أنْ يطلب ذلك من جماعة الحوثيّ التي تقطن في بلدٍ يبعد آلاف الكيلومترات عن فلسطين، فهذا يعني تكذيباً صريحاً للدعاية الرسمية لـ«حزب الله».

وبالطبع، انفضاح دور «حزب الله» -كعصا غليظةٍ لحماية المصالح الإيرانية- لا يحتاج إلى براهين، فلدينا منها الكثير. لكنَّ إضافةَ برهانٍ جديدٍ من فم الـمُشغِّل الإيرانيِّ هو أمرٌ مهمٌّ ما دام هذا الـمُشغِّل يزداد تورُّطاً، يوماً بعد يومٍ، في تفخيخ مجتمعاتنا العربية.

لذلك لا عجب بأنْ نسمعَ كُتَّاب ومحلِّلي المحور الإيراني وهم يُطلقون على انقلاب الحوثيين اسم «7 أيَّار يمنيّ»! في إشارةٍ لا تخفى إلى الاجتياح المسلَّح الذي قام به «حزب الله» في بيروت بتاريخ 7 أيار 2008 (وقد كنتُ آنذاك ما أزال موجوداً في بيروت، واختبأنا في ذلك اليوم -نحن الكتَّاب المناهضين لـ«حزب الله»- في بيوت أصدقاء خارج دائرة اشتباه الحزب، وسمعنا بآذاننا الشعارات الطائفية التي وصلتْ إلى حدود التغنِّي بهَتْكِ الأعراض لطائفةٍ

بعينها).

لقد تحوَّلَ «حزب الله» إلى ما يشبه القالبَ المثاليَّ في المصنعِ الإيرانيِّ لصنع المفخَّخات الطائفية، حيث يتمُّ صبُّ جميع المنتجات الإرهابية في هذا القالب، ومن ثمَّ تصديرها إلى الدول العربية. وما أسميتُه في مقالةٍ سابقةٍ بـ«اكتمال طَوْق النار الإيراني» (12 أيلول 2014) ليس سوى سلسلةٍ من النُّسَخ المصنوعة في قالب «حزب الله».

«حزب الله»، اليومَ، هو مفاعلٌ إيرانيٌّ لتخصيب الفتنة الطائفية، وإيران تسعى لإنتاج مفاعلاتٍ جديدةٍ في كلِّ الدول العربية، وقد نجحتْ فعلاً في اليمن، ولديها الكثير من المشاريع المشابهة في مختلف بلاد العرب.

النوويُّ الإيرانيُّ الحقيقيُّ هو النوويُّ الطائفيُّ الذي بدأت انفجاراته تُدمِّر مدننا وقرانا، على مرأى من الجنود الإسرائيليين السعداء بـ«مقاومة» متخصِّصة في تدمير بلادها.

موقع «كلُّنا شركاء»، **24** تشرين الأول **2014**

المصالحة المسمومة

القصَّة التي وقعتْ في منطقة وادي بردى بريف دمشق، قبل أشهر، تقول إنَّ مصالحةً حدثتْ بين صديقَيْن أحدهما معارض والآخر مُقرَّب من النظام أدَّت إلى مقتل المعارض ووالده وتسميم 12 شخصاً من أقاربه وجيرانه! حيث قام الصديق الـمُقرَّب من النظام بإهداء صديقه المعارض أربعَ عُلَب حلويات تحتوي على مادَّة «التاليوم» القاتلة كعربون مصالحة!

هذه القصة المرعبة التي جرت على مستوى أفرادٍ، يُراد لها أنْ تجريَ على مستوى أوطان.

إنَّ تعاملَ الشعبِ السوريِّ مع فكرة المصالحة مع نظامٍ امتهن الجريمة، بالبراءة التي تعامل بها ذلك المعارض المسكين، سيعني نتيجةً مشابهةً: التسمُّمُ... فالموتُ.

فهذا الصديق الذي استغلَّ فرصة المصالحة لقتل صديقه، هو جزءٌ من العقل الجمعيِّ الذي يفكِّر فيه النظام الذي ينتمي إليه. هو عيِّنةٌ دقيقةٌ للطريقة التي يفكِّر فيها نظام الأسد والنظرة التي ينظر

فيها إلى فكرة المصالحة.

فلمْ ينظرْ هذا النظامُ يوماً إلى فكرة المصالحة على أنَّها حلٌّ للخروج من المأساة التي أدخل البلاد فيها، بل نظر إليها كفخٍّ يستطيع بواسطته تنفيذَ ما عجزت الحرب عن تنفيذه.

وبين المصالحة كحلٍّ، والمصالحة كفخٍّ، تعيش اليقظة السورية أقسى الظروف؛ بين الرغبة في إنهاء المأساة والـخوف من تعميقها.

بالطبع، ليس من سوريٍّ واحدٍ على وجه الأرض لا يأمل بإنهاء المأساة ودمل الجراح، ولكنْ ليس على زَغَلٍ أو خديعةٍ تقوم على الاستفراد بالمناطق ومهادنتها ريثما يتمُّ سحق المناطق الأخرى.

المصالحة المسمومة التي جاءت على شكل عُلَبِ حلوى مليئةٍ بـمادَّةٍ سُمِّيَّةٍ قاتلةٍ لشخصٍ معارضٍ أكلَ منها وأطعمَ أهله وجيرانه بكل براءة... هي المصالحة ذاتها التي حدثتْ في بعض المناطق فزادتْ من معاناتها وإذلالها وموتها البطيء. مع فارق أنَّ السمَّ هنا أكثر فتكاً لأنَّه لا يفتك فقط بجسد الثورة، بل يفتك بروحها أيضاً.

إنَّ المسافة التي قطعتْها الثورةُ في سوريا بلغتْ نقطة اللاعودة، حيث فرصة المصالحة الحقيقية مع هذا النظام الطائفيِّ المتوحَّش باتتْ تقارب الصفر. أمَّا المصالحة المنشودة فيجب أن تكون بين مكوِّنات المجتمع السوري، بعد رمي أقنعة التكاذب «الوطنيِّ»

ومحاسبة المجرمين، والتفاوض على عقدٍ اجتماعيٍّ جديدٍ ليس له الشكل الجميل لعُلَب الحلوى القاتلة.

موقع «كلُّنا شركاء»، **19** حزيران **2015**

صورة المثقَّف

مع تصاعد حالة الهستيريا الدموية التي أَدخلَ بها نظامُ الأسد بقيةَ المجتمع السوريِّ، بتُّ لا أستطيع الهربَ من تسمية الأشياء بمسمَّياتها المَجرَّدة، وبالتالي الاعتراف بأنَّ الاستبداد في سوريا لم يكن استبداداً سياسياً عادياً، بل إنَّما هو استبدادٌ طائفيٌّ يلبس اللبوسَ السياسيَّ.

وبالطبع قرأتُ ردوداً كثيرةً في هذا الصدد، بعضها صادقٌ وبعضها شتَّامٌ، لكنَّ ما لفتني حقَّاً هو وجود أكثر من ردٍّ يُحذِّرني من أنَّني قد شوَّهت صورتي كمثقَّفٍ بسبب هذا الكلام.

***

حين أجرتْ معي مراسلة جريدة «نيويورك صن» الأميركية، سنة 2005 في بيروت، مقابلةً صحافيةً حول نشاطي السياسي، سألتني السؤال الآتي: لماذا قرَّرتَ معارضة النظام؟

وكان جوابي بسيطاً جداً: أنا لم أُقرِّر أنْ أكون معارضاً للنظام، بل إنَّ العمل السياسيّ لم يكن من ضمن طموحاتي، فأنا شاعر

أصلاً، ولكني لم أستطع أن أبقى متفرِّجاً.

لقد كنتُ أتمنَّى فعلاً أن أبقى في تلك الصورة التي قالت ردودُ بعض الزملاء بأنني شوَّهتُها بالكلام عن الطائفية في سوريا، ولكنْ مثل هذا الأمر كان قد فات أوانه منذ أن دُفعتُ دفعاً لأن لا أكون الشخص الذي أردتُ أن أكونه.

فإذاً، الصورة الأصليَّة تـمَّ تشويهها منذ البداية، طالما أنَّ صورة المثقَّف التي أردتُها (الشاعر والناقد الأدبي) باتت على هامش الصورة التي حصلتُ عليها (مُعارض وكاتب مقالة سياسية).

***

حتَّى ما قبل الثورة، لم يكن ذلك التشوُّهُ الخفيُّ قد ظهر للآخرين الذين استطاعوا العمل في مؤسَّسات النظام، أو الهجرة مع الرضا بزيارةٍ سنويةٍ إلى الوطن دون أيِّ مضايقاتٍ من قبل الأجهزة الأمنيَّة. هؤلاء اختاروا في كتاباتهم الأبراجَ التي تحميهم من اتِّخاذ أيِّ موقفٍ تجاه ما يحصل في بلادهم من قهرٍ وظلمٍ واستبدادٍ. كانت الكتابة الأدبية بالنسبة إليهم بمثابة الـمُنقذ من ورطة اتِّـخاذ موقفٍ صريحٍ، حيث رطانة البلاغة وبهلوانيات الألفاظ ومواربات الكناية والتورية.

كان أمثالي، بالنسبة إلى هؤلاء، غير موجودين إلَّا كأدباء، أما

الجانبُ النضاليُّ ضدَّ الاستبداد فكان يتمُّ تأويله بشكلٍ غير بعيدٍ عن تأويلات النظام، حيث «الجهات المشبوهة» التي تستعملنا ضدَّ أوطاننا وتدفع لنا الأموال.

كنَّا بالنسبة إليهم مـجرَّد أدباء (طبعاً في التداولِ الشفهيِّ، أمَّا في الكتابة فلا يجرؤ أحدٌ منهم على الكتابة عن أعمالنا الأدبية)، لأننا -على قلَّتنا- نُحرجهم في صورتهم، بل نَجرح تلك الصورة التي تدَّعي الترفُّع عن صغائر السياسة، في حين أنَّها كانت تهرب من اتِّـخاذ موقفٍ تجاه الاستبداد الذي ابتلع بلادنا.

***

إنَّ ما حرصتُ عليه منذ بداية حياتي السياسية كمعارضٍ (بدأتْ بشكلها الـمُعلَن سنة 2002 حيث هربتُ إلى لبنان وشرعتُ بالكتابة في بعض صحفه ضدَّ النظام) هو ألَّا أتلوَّث بالمال السياسي أو الولاءات السياسية أو مهادنة الاستبداد. هذا جزء أساسي من صورة المثقَّف كما فهمتُها.

إنَّ لصورة المثقَّف المنخرط في العمل السياسيِّ أكثر من زاويةٍ للنظر إليها، لكنَّ هناك زوايا حتميةً لا يمكن القفز فوقها، أو إخضاعها لمسألة وجهات النظر، وعلى رأسها مسألة السيرة النظيفة. لقد كنت من أكثر الذين سخروا وهاجموا «شاعراً» لبنانياً كتبَ

ديوانَ شعرٍ و«رواية» في رفيق الحريري، لأنَّ الموقفَ السياسيَّ من جريمة الاغتيال لا يجب استعماله كبابٍ للارتزاق. فذلك «الشاعر» حوَّل موقفه السياسيَّ من قضية اغتيال الحريري إلى «سبُّوبةٍ» وبابٍ للرزق. وموقفي هاهنا ينبع، في الدرجة الأولى، من حرصي أيَّما حرصٍ على صورة المثقَّف. وكذا كان موقفي من أيِّ قضيةٍ سياسيةٍ تستلزم اتِّخاذ موقفٍ مبدئيٍّ يمكن بقليلٍ من الاستثمار تحويله إلى منفعةٍ شخصيةٍ.

هذا ما فهمتُه، وأفهمُه، عن صورة المثقَّف.

***

اليومَ، يهرب بعضٌ (كثيرٌ) من مثقَّفي سوريا نحو استعمال الأقنعة في كتاباتهم، في زمنٍ ميزته الأولى تمزيق الأقنعة. بينما يواظب بعضٌ آخر (كثيرٌ أيضاً) على استعمال لغةٍ إنشائيةٍ رومانسيةٍ لا تغادر السطح، ولا تنفع الواقعَ بشيءٍ، ولكنَّه يصرُّ على استعمالها لتكون صكَّ براءته أمام جمهوره، وفي الوقت ذاته لن تُكلِّفه أيَّ شيءٍ من نصاعة صورته المتوهَّمة والمتورِّمة والجبانة.

أمَّا القلَّة من المثقَّفين الذين قرَّروا مواجهة الواقع بمفرداته الحقيقية، فقد تحوَّلوا -ضمن بروباغندا منظَّمةٍ وخبيثةٍ- إلى «مثقَّفين طائفيين»!

لكنَّ الجميع، في قرارة نفسه، يعرف ما هي الحقيقة، وأين هي الحقيقة.

***

لقد حملَ آخرُ عددٍ أصدرتُه من مجلَّة «الغاوون» الشعرية عنوان «سوريا تحترق»، ومن ثمَّ أوقفتُ إصدار هذه المجلَّة التي كنتُ أعتبرها مشروع العمر. شعراء كثر من مختلف البلاد العربية صُدموا بقرار إيقاف مجلَّةٍ تصدَّرت المشهدَ الأدبيَّ العربيَّ لسنواتٍ عديدةٍ. لكنِّي، فعلياً، بتُّ عاجزاً عن تحرير أيِّ مادَّةٍ أدبيةٍ ليس لها مكان ضمن ما يجري اليومَ في بلادي. ولو كنتُ ممن يكترثون بالصورة المزيَّفة للمثقَّف لَـمَا أوقفتُ المجلَّة.

مثل هذه المسائل ليستْ قراراتٍ شخصيةً خاضعةً لحسابات الربح والخسارة بقدر ما هي جزءٌ لا يتجزَّأ من موقف الإنسان.

لقد رأيتُ بأنَّ انخراطي في العمل المباشر، كمثقَّفٍ، له تأثيرٌ أكبر من إصدار دورية أدبية، مهما خصَّصتْ هذه الدورية من مساحةٍ للقضية السورية. لذلك انخرطتُ في كلِّ عملٍ رأيتُ فيه فائدةً تُرجى للقضية الوحيدة التي أعيشها، اليومَ، بكلِّ جوارح الشاعر التوَّاق إلى وطنٍ حرٍّ.

***

يقولون بأنَّني شوَّهتُ صورتي كمثقَّف. لكنِّي لا أفهم معنى أن تكون صورةُ المثقَّف جميلةً وأنيقةً وهو يدَّعي الدفاعَ عن شعب باتَ مُشوَّهاً: جسدياً بالقتل، ونفسياً باليأس، واجتماعياً بالتفكُّك، وديموغرافياً بالتطهير.

لا أعرف معنى أن تكون صورتي بيضاء في وطنٍ غطَّاه الدخان، ونقيةً في وطنٍ غابَ عن الرؤية، وناصعةً في وطنٍ يسبح في الدم. ثمَّ إنَّني أسأل: أليست أنانيةً من المثقَّف أن يكون مهجوساً بنصاعة صورته على حساب قول الحقيقة؟

***

الأبراجُ العاجيةُ، التي يقيم فيها المثقَّفون، موجودةٌ فقط في البلاد الـمُستقرَّة والمتقدِّمة والتي لا حروب فيها ولا مجازر ولا سجون ولا دكتاتوريات. أمَّا في بلادنا المنهارة والتعيسة فليس لدينا سوى أقبيةٍ واطئةٍ إلى درجة أنَّكَ غير قادرٍ على أن ترفع رأسكَ فيها.

وحين تتعارض صورة الـمثقَّف مع صورة الحقيقة، فاعلمْ يا أيُّها الـمثقَّف بأنَّ صورتكَ، هاهنا، قد طابقتْ تماماً صورةَ العار.

موقع «كلّنا شركاء»، **13** تشرين الأول **2014**

المحتويات

صدر للمؤلِّف

في الشعر:

- الرسَّام (1999)
- ملحق الشعراء السرِّي (2001)
- قصيدة فاطمة (2004)
- العروس (2007)
- تمثال امرأة تتجرَّع السمّ (2008)
- حصاة في كُليتي اليسرى (2013)
- السوريون شجر (2017)
- قبورٌ صغيرة (2021)
- أطفال تأخَّروا عن موعد النوم (2021)

في السرد:

- لحظة وفاة الدكتاتور (2011)

في النقد الأدبي:

- محاكمة الشِّعر (2021)

في الثقافة:

- فضائح الآخرين (2021)
- المثقَّف القديم (2021)
- عند تقاطُعِ الفنِّ والسياسة (2021)

في السياسة:

- حكُّ الصدأ (2017)
- مفاتيح (2021)
- مواكبات فكرية للثورة (2021)
- الجانب الصامت من المأساة (2021)

في الفلسفة:

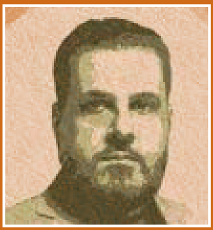
- حقائق من نوع خاصّ (قيد النشر)

منشورات ماهر شرف الدين

من الكتاب

حرصَ النظامُ الطائفيُّ في سوريا، أشدَّ الحرص، على قَلْبِ «سحَّارة» المجتمع السوريِّ، ليصبح الرديءُ في الواجهة، والجيِّدُ في القعر، وهو ما سبق أن أسميتُه من قبل بـ«سياسة تعويم الحثالة». حيث تسيَّدتْ حثالةُ الطوائفِ الدولةَ والمؤسَّساتِ والمجتمعَ. وحين يسود حثالةُ القوم مجتمعَهم، تتحوَّل الـمشكلة إلى أزمةٍ داخليةٍ تعصف بقلبِ هذاَ المجتمعِ، مفكِّكةً إيَّاه إلى عناصره الأولية، الـمَا قبل الدولة، والقائمة غالباً على عَصبيَّاتٍ بائدةٍ ورثَّةٍ، تستمدُّ نوعَها (الطائفيّ أو العشائريّ أو المناطقيّ أو العائليّ...) من شكل الصراع الذي تـمَّ زجُّها فيه، ليقوم النظام بعد ذلك بإدارة تلك الصراعات عبر أذرعه الأمنية والاجتماعية.

الديكور الذي، من خلفه، استُملكت الدولةُ لمصلحة طائفةٍ معيَّنةٍ، تـمَّ انتقاؤه بعنايةٍ شديدةٍ من حثالةِ المجتمع السوري المغلوبِ على أمره...



شاعر وكاتب سوري من مواليد 1977. كتبَ في السيرة والنقد الأدبي والفلسفة والتاريخ والسياسة.

ISBN: 978-0-9985392-9-4